السهل المفيد
فى
تفسير القرآن المجيد

الجزء الخامس

عبدالحي حسين محمد الفرماوي

الأحزاب

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الأحزاب : سورة مدنية

تتحدث عن : بعض أمور الأسرة المسلمة، وعن المنافقين وأذاهم للنبى صلى الله عليه وسلم، وعن غزوة الأحزاب، إلى غير ذلك.

وهى تبدأ بقوله تعالى :

{ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً * وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً * وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً }
[الآيات ١-٣]

يا أيها النبى نداء إلى الحبيب صلى الله عليه وسلم ..

معناه : يا أيها المؤتمن على أسرارنا، المبلغ عنا خطابنا إلى أحبابنا .. إليك هذه التكليفات :

أولاً : اتق الله أى : دم على تقوى الله، وازدد منه ..

والتقوى : أن تعمل بطاعة الله، على نور من شرع الله، رجاءً فى ثواب الله، وأن تترك معصية الله، على نور من شرع الله، مخافة من عذاب الله.

ثانياً : ولا تطع الكافرين والمنافقين فيما يخالف شريعة الله، فلا تسمع منهم، ولا تستشرهم.

حيث إن الله كان عليماً بعواقب الأمور حكيماً فيما أمرك به ونهاك عنه.

لذلك : هو أحق أن تتبع تعاليمه.

ثالثاً : واتبع ما يوحى إليك من ربك من قرآن وسنة.

حيث إن الله كان بما تعلمون خبيراً لا تخفى عليه خافية.

رابعاً: وتوكل على الله فى جميع أمورك وأحوالك، وهو كافيك فى كل ذلك وكفى بالله وكيلاً.

ويلاحظ : جيداً أن الخطاب فى هذه التكليفات للنبى صلى الله عليه وسلم ..

ولكن : تدخل أمته معه فيها ..

فهى مطالبة أيضاً بهذه الأمور : تقوى الله، وعدم طاعة الكافرين والمنافقين، واتباع الوحى، والتوكل على الله.

* * *

وبعد هذه المقدمة التشريعية للنبى صلى الله عليه وسلم، التعليمية له ولأمته: تدخل الآيات فى إبطال عادة جاهلية.

وهى عادة التبنى ..
فتقول تميهداً لذلك :

{ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءكُمْ أَبْنَاءكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ }
[الآية ٤]

يعنى : ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه يَعِى بهما، كما كان يدعى بعض الكفار، عناداً للنبى صلى الله عليه وسلم.

ولذلك : هو قلب للإنسان واحد، ومنهج يسير عليه الإنسان واحد، وهو منهج الله تعالى.

وما جعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن أمهاتكم حينما يقول المرء لزوجته : أنت على كظهر أمى ، أى : لا تصير الزوجة أماً بذلك.

و ثالثاً ما جعل أدعياءكم الذين تدَّعون بنوتهم، وتتبنونهم : أبناءكم.
ذلكم الذى تدعونه فى حق هؤلاء الثلاثة : هو قولكم بأفواهكم فقط، وليس له علاقة بالحقيقة.
والله وحده : هو الذى يقول الحق فى ذلك.
وهو أيضاً : الذى يهدى السبيل الحق، والطريق الحق، والقول الحق.

* * *

لذلك ..
وبخصوص أولاد التبنى :

{ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً }
[الآية ٥]

وهنا : إبطال مباشر لعادة التبنِّى .
وتشريع واضح : للبديل ..
ادعوهم لآبائهم إن كان آباؤهم معروفين ..
ذلك : هو أقسط أعدل وأفضل عند الله وفى شرعه ودينه.
فإن لم تعلموا آباءهم لتنسبوهم إليهم : فـــ هم إخوانكم فى الدين.
وهذه أخوة جديدة : بدأ الإسلام يرسخها فى النفوس، ويعلى من شأنها بين المسلمين.
و كذلك :هم مواليكم بينكم وبينهم ولاية فى الدين ،وترابط وتناصر.
وذلك : عوضاً لهم عما فاتهم من النسب الحقيقى.

هذا ..

وليس عليكم جناح أى : ذنب وإثم فيما أخطأتم به فى هذا الموضوع وهو موضوع "التبنى"، قبل هذا التشريع.

ولكن .. الإثم والذنب : فى ما تعمدت قلوبكم فعله، وفعلتموه، بعد هذا النهى عنه.

وكان الله غفوراً لما سبق منكم فى هذا الموضوع رحيماً حيث يقبل التوبة، حتى ممن كان متعمداً.

* * *

وبعد ترسيخ هذا الحكم الجديد : فى هذا المجتمع الوليد ..

يشرع ربنا أحكاماً أخرى ..

فيقول سبحانه :

{ النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلاَّ أَن تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفاً كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً }

[الاية ٦]

النبى صلى الله عليه وسلم أولى بـــ طاعة المؤمنين من طاعتهم لـــ أنفسهم حيث إن نفوسهم تدعوهم إلى الهلاك، وهو يدعوهم إلى النجاة.

وهذا : هو الحكم الأول.

والحكم الثانى : وأزواجه أمهاتهم أى : كأمهاتهم، فى وجوب احترامهن وتعظيمهن، وحرمة نكاحهن.

الحكم الثالث : وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى قضية الميراث، فيكون الميراث بينهم بالقرابات، وذلك فى كتاب الله أى : فى حكمه وقضائه، من المؤمنين والمهاجرين حيث كان التوارث بالولاية فى الدين والهجرة، لا بالنسب والقرابة.

ويستثنى من هذا الحكم : التواصل، والإحسان، والبر، والمعروف بين هؤلاء الأولياء إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفاً فهذا باق إلى يوم القيامة.

كان ذلك أى : التوارث بالأرحام والقرابات، والإحسان والتواصل، مع أولوا الأرحام فى الكتاب وهو اللوح المحفوظ مسطوراً مكتوباً.

أيها الأحباب فى الله ...!!

بعد هذه التكليفات : للنبى صلى الله عليه وسلم، وأمته ..!!

وبعد تصحيح هذه المفاهيم والعادات المغلوطة : التى كانت ..!!

نعم .. بعد التأكيد على القيام وتبلغ هذا وذاك.

يقوى ربنا عزيمة حبيبه صلى الله عليه وسلم ، بتذكيره بإخوانه المرسلين من أولى العزم ..

فيقول :

{ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقاً غَلِيظاً * لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً أَلِيماً }

[الآيتان ٧ ، ٨]

أى : و اذكر إذّ وقت أن أخذنا من النبيين جميعاً ميثاقهم فى إقامة دين الله، واتباع شرعه، وتبليغ أحكامه وهديه.

و اذكر أيضاً .. وقت أن أخذنا منك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم على وجه الخصوص ؛ لأنكم من أولى العزم، وجميل الصبر على تحمل إيذاء الدعوة.

و قد أخذنا منهم أى : من الجميع ميثاقاً غليظاً أى : عهداً شديداً مؤكداً.

وكان ذلك :

ليسأل الله الصادقين المؤمنين عن صدقهم وهم الأنبياء ، فى تبليغ رسالتهم؛ تبكيتاً للكافرين، وخزياً لهم و قد أعد الله للكافرين هؤلاء عذاباً أليماً جزاء تكذيبهم وعنادهم.

* * *

أيها المؤمنون .. وأيتها المؤمنات .. أعزكم الله جميعاً.

عندما أمر الله رسوله والمؤمنين معه فى أول السورة : بتقوى الله، وعدم طاعة الكافرين والمنافقين خوفاً منهم، واتباع شرع الله، والتوكل عليه.

وذلك : من باب التربية على الخوف من الله وحده، وعدم الخوف من غيره سبحانه .. أيّاً من كان هذا الغير ..!!

بين ذلك عملياً .. بما حدث فى غزوة الأحزاب.

حيث يقول تبارك وتعالى :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً }

[الآية ٩]

هذه هى قصة غزوة الأحزاب فى كلمات معدودات ..

يبين فيها رب العزة، أنه : هو الذى صرف الأذى، وأبعد الخوف عن عباده المؤمنين، ونصرهم ؛ لما حققوا : تقواهم لله، واتباعهم لشرعه، وتوكلهم عليه، وعدم طاعتهم للكافرين والمنافقين.

* * *

وتفصيلات هذه الغزوة : من باب الدارسة لأخذ العبرة، والتربية الجهادية ، فى الآيات التالية :

يقول ربنا سبحانه وتعالى :

{ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً }
[الآيتان ١٠ ، ١١]

هذا تصوير خارجى وداخلى للموقف فى هذه الغزوة ..
الخارجى :إذْ جاءكم أى الأعداء .
من فوقكم من شمال المدينة المنورة، وهم قريش وغطفان .
ومن أسفل منكم من جنوب المدينة، وهم يهود بنو قريظة، الذين نقضوا العهد معكم فى هذه اللحظات ..
فأصبحتم بذلك : محاطين بالأعداء من كل جانب.
والداخلى :وإذْ زاغت الأبصار منكم وبلغت منكم كذلك القلوب الحناجر من شدة الخوف والفزع.
و أصبحتم فى هذا الموقف : تظنون بالله الظنونا حيث فهم المسلمون أن هذا هو الابتلاء، فخاف بعضهم الزلل، وضعف الاحتمال فى مواجهة هذا العدوان، وعدم القدرة على نصرة الدين.
هنالك حقيقة :ابتلى المؤمنون وامتحنوا؛ ليظهر صبرهم وزلزلوا زلزالاً شديداً ليظهر ثباتهم على عقيدتهم.

* * *

والأدهى من ذلك : موقف المنافقين، الذين كانوا فى الجبهة الداخلية ..
يقول عنهم العزيز الحكيم :

{ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً }
[الآية ١٢]

أى : و اذكر إذ يقول المنافقون نفاقاً كاملاً والذين فى قلوبهم مرض أى : بعض نفاق ..
يقولون لبعضهم البعض ما وعدنا الله ورسوله من النصر والفوز على الأعداء، والنعيم المقيم إن صرنا شهداء إلا غروراً أى : تغريراً بنا، وتزييفاً علينا.

* * *

بل أكثر من هذا الكلام : في التثبيط عن الجهاد ..

{ وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لاَ مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَاراً }

[الآية ١٣]

يعنى : حوّل المنافقون أحاديثهم إلى عمل إذ قالت طائفة منهم لكل الجيش يا أهل يثرب وهى المدينة ؛ تخويفاً، وتشكيكاً فى النصر لا مقام لكم أمام هذا الجيش الجرار من المشركين، الذين أتوكم ليفنوكم ويستأصلوا وجودكم.

ونحن ناصحون لكم فارجعوا إلى المدينة، ولا تحاربوا.

إنها : دعوة خطيرة، وفتنة منكرة ..!!

يَثْبُت فيها المؤمنون، ولا يتشككون، ولا يتراجعون.

وينخذل فيها المنافقون ..

فيتسرب بعضهم خفية إلى المدينة، منسحباً من ساحة الشرف والجهاد.

ويستأذن فريق منهم أى من المنافقين النبى فى الانصرافويقولون معللين انصرافهم إن بيوتنا عورة أى : مكشوفة للأعداء.

و الحقيقة : أنهم كذبوا ؛ إذ ما هى بعورة كما يزعمون إنأى : مايريدون بهذا التعلل إلا فراراً من القتال.

وما دفعهم إلى ذلك : إلا عدم الإيمان بالله ورسوله ..

* * *

لذلك .. يقول تعالى :

{ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلاَّ يَسِيراً }

[الآية ١٤]

أى : ولو دخلت المدينة بالأعداء عليهم من أقطارها من جوانبها فقط، وليس من قلبها ثم سئلوا الفتنة وهى الكفر، أى : طلب منهم الردة عن الإيمان الظاهرى الذى هم عليه ، والعودة إلى الكفر لأتوها وكفروا وما تلبثوا بها وما تأخروا عن إجابتهم لهذه الفتنة إلا يسيراً.

* * *

والغريب : أن هؤلاء كان منهم عهد قبل ذلك..!!

نعم ..

{ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولاً }
[الآية ١٥]

يعنى : ولقد كانوا عاهدوا الله ورسوله من قبل أى : من قبل هذه الغزوة .. أنهم لا يولون الأدبار أى : لا يفرون من المعركة وملاقاة الأعداء؛ دفاعاً عن المدينة، بل يثبتون على القتال، ويموتون شهداء.
ولكنهم الآن : فروا، ونقضوا عهدهم.
وكان عهد الله مسئولاً مطلوباً للوفاء به، ومحاسباً عليه يوم القيامة.

* * *

ولما كان فرارهم من ساحة القتال ؛ حرصاً منهم على حياتهم ..!!
فقد قال ربنا لحبيبه.

{ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذاً لاَّ تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً * قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلاَ يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً }
[الآيتان ١٦ ، ١٧]

يعنى : قل لهم لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل حيث إنه: لا يؤخر آجالكم، ولا يطوّل أعماركم.
وحتى لو فررتم منه فى ساحة الجهاد ، كما تظنون وتحبون :إذاً لا تمتعون بعد هذا الفرار فى لذات الدنيا الفانية إلا قليلاً ثم تموتون بعدها.
قل لهم أيضاً : إن فررتم من الموت أو القتل من ذا الذى يعصمكم ويمنعكم من الله إن أراد بكم سوءاً فى أنفسكم بالقتل، أو بالمصائب، وغيرها أو أراد بكم رحمة منه ، كعافية وسلامة فى بقية عمركم بعد الفرار.
على كل حال : هؤلاء الذين يفرون .. سيعذبون.
ولا يجدون لهم ساعتها من دون الله ولياً يغيثهم ولا نصيراً يمنع عنهم هذا العذاب.

* * *

ثم بَيَّن الله : ملامح وعلامات هؤلاء المنافقين ..
وذلك .. فى قوله سبحانه :

{ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلاً }

[الآية ١٨]

المعنى : الله عز وجل يعلم المعوقين عن الجهاد منكم، أى من بين صفوفكم.

سواء أكان هذا التعويق : تثبيط بالقول أم بالفعل.

فهم يثبطون عن الجهاد بالقول؛ حيث يقولون لإخوانهم هلم إلينا تعالوا معنا، واتركوا الساحة ، ولا تقاتلوا مع محمد.

وهم يثبطون عن الجهاد بالفعل كذلك، حيث إنهم لا يأتون البأس أى : ساحة الجهاد، وأرض المعركة إلا قليلاً من باب الرياء، ويتعللون لغيابهم بانشغالهم بمصالحهم الخاصة.

* * *

إنهم بخلاء ..

{ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً }

[الآية ١٩]

نعم ..

أشحة عليكم بالمال فلا ينفقون فى سبيل الله، وبالبدن فلا يقاتلون معكم، وبالعواطف فلا يشفقون عليكم ولا يتوددون إليكم.

وسبب ذلك : أنهم جبناء.

فإذا جاء الخوف من العدو : رأيتهم ينظرون إليك فى هذه الحالة تدور أعينهم يميناً وشمالاً، وهم فى منتهى الهلع كالذى يغشى عليه من الفزع، عند حلول الموت به.

وهكذا .. خوف الجبان البخيل من القتال.

فإذا ابتعد العدو، أو انهزم، وذهب الخوف عنهم : سلقوكم طالت ألسنتهم، وعلت أصواتهم، وآذوكم بالكلام الشديد، المؤلم كالحديد، وهم يبحثون عن الغنائم والمكاسب.

وهم بكلامهم هذا، وحرصهم هذا : أشحة على الخير يطالبون بلا خجل، ويزاحمون بلا مروءة .

يقولون : أين نصيبنا، لقد قاتلنا معكم؟

فهم فى الحرب : أجبن شئ.

وهم فى السلم : أطمع شئ.

أولئك الذين يفعلون ذلك : لم يؤمنوا فى الحقيقة، إلا باللسان فقط.

ولهذا : أحبط الله وأبطل ثواب أعمالهم.

وكان ذلك الإحباط لأعمالهم : عدلاً من الله تعالى، كما أنه كان على الله يسيراً.

* * *

هؤلاء من شدة جبنهم : أنهم كانوا ..

{ يَحْسَبُونَ الأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ الأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلاَّ قَلِيلاً }
[الآية ٢٠]

يعنى : أن هؤلاء المنافقين يحسبون الأحزاب التى جاءت لحرب المسلمين لم يذهبوا حتى بعد انصرافهم.
و كانوا إن يأت الأحزاب مرة ثانية يودوا أى المنافقون لو أنهم بادون أى : مقيمون بالبادية فى وسط الأعراب تجنباً للقتال، ويسألون كل قادم من المدينة عن أنبائكم.
ولو أنهم كانوا فيكم ساعة القتال والحرب : ما قاتلوا إلا قتالاً قليلاً لجبنهم، وضعف إيمانهم.

* * *

هؤلاء هم المنافقون ..
فاعرفوهم واحذروهم ..
واتبعوا رسول الله، ولا تتخلوا عنه أبداً.

{ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً }
[الآية ٢١]

أى : لقد كان لكم فى أقوال وأفعال وأحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة قدوة طيبة تحتذونها، وتسيرون عليها ..
يا أيها المتخلفون عن الجهاد، والقتال معه فى سبيل الله ..!!
أليس هو الذى بذل نفسه، لنصرة دين الله؛ حينما خرج إلى الخندق، وجاع بطنه، وصبر وصابر فى سبيل الله ..؟
أليس هو الذى بذل نفسه، لنصرة دين الله؛ حينما خرج إلى أحد، وشج وجهه، وكسرت رباعيته، وقتل عمه، وصبر وصابر فى سبيل الله ..؟
نعم .. إنه صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة ومثل أعلى لكل الباحثين عن الشرف والمجد.
وهو أسوة حسنة يَقتدى به ، كلٌّ موصوف بهذه الصفات :

أولاً : الذى يرجو مرضاة الله سبحانه، ويتبع شرعه.
ثانياً : الذى يخاف اليوم الآخر ويَسْتَعِدُّ له بالعمل الصالح.

ثالثاً : الذى يذكر الله فى حال الرجاء والخوف، بل فى كل أحواله كثيراً.

* * *

وبعد أن بين الله أحوال المنافقين، وعاتب المتخلفين، وقدم الأسوة الحسنة للراغبين فى مرضاة الله ..!!
بين حال المؤمنين الصادقين فى هذه الغزوة.
فقال :

{ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَاناً وَتَسْلِيماً }
[الآية ٢٢]

أى : لما رأى المؤمنون وهم مصطفون للقتال الأحزاب قدموا لقتالهم .. لم يخافوا، ولم يتخاذلوا، بل قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله من الابتلاء والاختبار، ثم النصر على الأعداء بإذن الله وصدق الله ورسوله فى هذا الوعد.

وما زادهم تجمع الأحزاب وكثرتهم، وإحاطتهم بالمسلمين من كل جانب إلا إيماناً بالله ورسوله، وبوعد الله ورسوله وتسليماً لقضاء الله وقدره.

* * *

ولما كان الله عز وجل قد أخبر عن المنافقين أنهم نقضوا العهد، وولوا الأدبار، وفروا من ساحة القتال..!!
فقد ذكر ثبات المؤمنين، ووفاءهم بما عاهدوا الله عليه.
فقال :

{ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً }
[الآية ٢٣]

يعنى : من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه من الثبات فى القتال، والبقاء بجانب رسول الله، حتى ينصره الله، ويعز دينه، ويهزم أعداءه.
وهم: الصحابة رضوان الله عليهم :
وهم قسمان :
فمنهم من قضى نحبه و وفىّ بعهده، وأدى ما عليه، واستشهد فى سبيل لله، وهم كثير.

ومنهم من هو ثابت مع النبى صلى الله عليه وسلم، ويقاتل معه،و ينتظر إحدى الحسنيين، النصر، أو الشهادة.

و هؤلاء ، وهؤلاء ما بدلوا العهد تبديلاً لا الذى قضى منهم نحبه، ولا من ينتظر.

* * *

ومن نعم الله على هؤلاء المؤمنين : أن الله شرفهم بالصدق فيما عاهدوا الله عليه.

وذلك :

{ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً }
[الآية ٢٤]

أى : ليجزى الله هؤلاء الصادقين خيراً بصدقهم فى وفائهم بما عاهدوا الله عليه.

و كذلك : لـــ يعذب المنافقين على عدم وفائهم بما عاهدوا الله عليه، وانسحابهم من ساحة القتال إن شاء إذا لم يتوبوا لربهم.

أو يتوب عليهم ويغفر لهم : إن تابوا إلى الله وأنابوا مرة أخرى، وصدقوا فى إيمانهم وتوبتهم.

إن الله كان غفوراً لمن تاب وآمن رحيماً بالمؤمنين جميعاً.

* * *

وانتهت غزوة الأحزاب.

{ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِياً عَزِيزاً }
[الآية ٢٥]

يعنى : ورد الله بقدرته الذين كفروا إلى ديارهم، محملين بغيظهم منكم، ومن هزيمتهم أمامكم.

خاصة : وأنهم لم ينالوا خيراً أى : نصراً، كانوا يرغبون فيه عليكم.

و بذلك: كفى الله المؤمنين القتال حيث سلط عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها.

وكان الله عز وجل قوياً قادراً عليهم عزيزاً لا يغلب إرادته أحد.

وقال النبى صلى الله عليه وسلم "لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا ولكنكم تغزونهم" .

وقد كان ..

إذ لم يأتوا للحرب فى المدينة بعدها .

بل انتقلت ساحة الحرب إلى حيث ديار الأعداء : فى الحديبية، ومكة، وحنين، وغير ذلك .

* * *

وكان من نتائج هذه الغزوة أيضاً..
ما يقوله تعالى :

{ وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً * وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لَّمْ تَطَؤُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً }
[الآيتان ٢٦ ، ٢٧]

و بعد أن رد الله الذين كفروا إلى ديارهم خائبين :أنزل بقدرته الذين ظاهروهم عاونوهم على قتال المسلمين، وغدروا بعهدهم مع النبى صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب وهم يهود بنى قريظة، الذين كانوا يسكنون أسفل المدينة من جهة الجنوب ، فى منطقة قباء.

أنزلهم من صياصيهم من حصونهم.

وقذف فى قلوبهم الرعب من المؤمنين؛ بسبب ضعفهم، ونقضهم العهد وغدرهم، وانصراف المشركين عنهم.

وانتصرتم عليهم؛حيث صرتمفريقاًمنهمتقتلونـــــهوتأسرونمنهمفريقاً آخر .

وبذلك : انتهى الوجود اليهودى تماماً ونهائياً بالمدينة المنورة.

وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم من بعدهم؛ حيث صارت ملكاً لكم.

و كذلك : أورثكم أرضاً لم تطئوها وتدخلوها بعد ..

يدخل فى ذلك : خيبر، التى فتحت بعد ذلك، كما يدخل فيها كل أرض تفتح للمسلمين، ويتم جلاء اليهود عنها إلى يوم القيامة.

ولعل هذه بشرى بالنصر للمسلمين فى أرض فلسطين : إذا وجد من المسلمين من يتصف بصفات صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وكان الله على كل شئ قديراً.

* * *

أيها المستمعون الأكارم ..
يقول العلماء : إن مكارم الأخلاق فى أمرين ..
التعظيم لله .
والشفقة على خلق الله.

ولما كان أفضل الناس فى مكارم الأخلاق ، هو محمد صلى الله عليه وسلم : فقد أرشده ربه إلى الأمر الأول، وهو "التعظيم لله" فى أول السورة، حينما قال له يا أيها النبى اتق الله.

وهنا يرشده ربه إلى الأمر الثانى : وهو الشفقة على خلق الله.
ويبدأ معه بأولى الخلق بهذه الشفقة : وهن الزوجات.
حيث يقول له :

{ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً * وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْراً عَظِيماً }
[الآيتان ٢٨ ، ٢٩]

روى : أن نساء النبى صلى الله عليه وسلم قد سألنه .. ثياب الزينة، وزيادة النفقة.
فنزلت هاتين الآيتين.
وهنا : خيَّر النبى صلى الله عليه سولم زوجاته، كما توضح الآيات ..
والمعنى : يا أيها النبى قل لأزواجك وَخيِّرْهُنَّ.
إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها وكثرة أموالها:فتعالين واخترن برغبتكن ذلك ؛وأنا .
أطلقكن، أى من تختار الحياة الدنيا وزينتها .
وأمتعكن متعة الطلاق، أى : أعطيكن نفقة المطلقة، ومتعتها .
وأسرحكن سراحاً جميلاً لا ضرر فيه لمن تختار ذلك.
وإن كنتن تردن الله ورسوله أى مرضاتهما، ونعيم الدار الآخرة : فجزاؤكن عند الله فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً.
وقد اخترن جميعاً: رضوان الله عليهنَّ ، الله ورسوله والدار الآخرة.

* * *

ولما اخترن الله ورسوله والدار الآخرة : أدبهن الله تعالى بجملة من الآداب الرفيعة، والأخلاق الكريمة، وهددهن على ضدها.
فقال مخاطباً لهن :

{ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً }
[الآية ٣٠]

يعنى : يا نساء النبى اتقين الله، وابتعدن عن ساحة الفاحشة؛ صيانة لمقام النبوة، وحفاظاً على مكانتكن فى بيت الوحى.
حيث إنه من يأت منكن بفاحشة مبينة أى بسيئة بليغة القبح :يضاعف لها العذاب ضعفين لأنها ليست كسائر النساء، وزوجها ليس كسائر الرجال ، حيث أنْتُنَّ وهو صلى الله عليه وسلم .. محل القدوة.
وكان ذلك التضعيف والزيادة فى العذاب على الله يسيراً.

* * *

وفى هذا : غاية البيان لشرف بيت النبوة، وغاية التأكيد على جعلهن محل القدوة.

صلى الله عليك يا سيدى يا رسول الله.

* * *

أيها الأحباب ..
نحن الآن .. مع الآداب الرفيعة، والأخلاق العالية، والقدوة الحسنة، فى بيت النبوة.
وهذا هو الأدب الثانى لنساء النبى صلى الله عليه وسلم :

{ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحاً نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقاً كَرِيماً }
[الآية ٣١]

ومن يقنت أى : ومن يطع منكن لله ورسوله وتعمل صالحاً نؤتها أجرها مرتين كما كان لها فى العذاب على الفاحشة ضعفين.
و زيادة على هذا الأجر المضاعف :
أعتدنا لها رزقاً كريماً عظيم القدر، وهو الجنة.

* * *

ثم يخاطبهن رب العزة : زيادة فى التشريف بهذه الآداب .
فيقول :

{ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفاً }
[الآية ٣٢]

يا نساء النبى لستن كأحد من النساء أى : ليس قدركن عندى مثل قدر غيركن من النساء الصالحات، بل أنتن أكرم على، وثوابكن أعظم لدى.
لذلك :

إن اتقيتن الله حق التقوى : فهذا هو الأدب الثالث ..

وهو :

فلا تخضعن بالقول إذا كان حديث منكن مع الرجال ، من وراء حجاب: فلا يكن حديثكن ليّناً فيطمع فى حديثكن الذى فى قلبه مرض أى : نفاق وريبة.

الأدب الرابع : وقلن لجميع من يتحدث معكن قولاً معروفاً أى : قولاً حسناً، معروفاً بالأدب، بعيداً عن الخضوع واللين.

* * *

وإذا كانت الآداب الإلهية لبيت النبوة السابقة : تتعلق بالأقوال ..!!

فهناك – كذلك – آداب تتعلق بالأفعال.

ومنها ما يلى :

{ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلاَ تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الجَاهِلِيَّةِ الأُولى وَأَقِمْنَ الصَّلاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ البَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً * وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفاً خَبِيراً }

[الآيتان ٣٣ ، ٣٤]

وقرن فى بيوتكن أى : إلزمن بيوتكن، فلا تخرجن منها لغير حاجة شرعية.

وهذا هو الأدب الخامس.

وأما الأدب السادس .. فهو ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى.

والجاهلية الأولى : هى الكفر قبل الإسلام.

والجاهلية الأخرى : هى الفسوق والفجور بعد الإسلام.

وتبرج الجاهلية الأولى : ما كانت تفعله المرأة ، من المشى بين يدى الرجال، أو المشى الخليع بين يدى الرجال، أو التكشف أو التعرية للعنق وبعض الشعر، وغير ذلك أمام الرجال.

والمعنى : ولا تكنَّ متبرجات إذا خرجتن، كما كان نساء الجاهلية الأولى يتبرجن.

والأدب السابع : وأقمن الصلاة وحافظن عليها بصفة خاصة.

والأدب الثامن : وآتين الزكاة.

والأدب التاسع : وأطعن الله ورسوله فى كل ما يرضى الله ورسوله.

إنما يريد الله ويشرع هذه الآداب .. لأمرين :

ليذهب عنكم الرجس أى الذنوب وآثامها، يا أهل البيت.

وكذلك يطهركم من نجاسة الآثام، والتحلى بهذه الأخلاق تطهيراً.

ويلاحظ جيداً : أنه فى ذكر هذه الآداب.

دعوة للإقتداء والتحلى بمكارمها من النساء المسلمات .

وتنفير لهن – أيضاً – على نواهيها.

وأما الأدب العاشر .. فهو :

واذكرن فى أنفسكن دائماً، ولغيركن تعليماً ووعظاً ما يتلى على النبى صلى الله عليه وسلم، ويوحى إليه فى بيوتكن من آيات الله أى: القرآن والحكمة أى : السنة النبوية المطهرة.

إن الله كان لطيفاً عالماً بغوامض الأشياء وخوافيها خبيراً بأفعالكن وأقوالكن ..

فاحذرن مخالفة أمره تعالى ونهيه، وكذلك : معصية رسوله.

هذا ..

ويذكر المولى سبحانه وتعالى الصفات العليا للرجل والمرأة، والتى يستحق بها أهلها : مغفرة الله تعالى، ورضوانه، ويرفع بها قدرهما.

حيث يقول تبارك وتعالى :

{ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً }

[الآية ٣٥]

يروى : أن بعض أزواج النبى صلى الله عليه وسلم سألوه قائلين له : إن الله ذكر الرجال فى القرآن، ولم يذكر النساء بخير..!!

أليس فينا خير نذكر به ..؟ إنا نخاف أن لا تقبل منا طاعة..!!

فنزلت هذه الآية، وفيها مساواة النساء بالرجال : فى العمل والأجر.

إذ تذكر عشر صفات : ينبغى أن تكون فى الرجال والنساء على السواء.

الأولى : إن المسلمين والمسلمات والمسلم : من أسلم أمره لله، ورضى شرعه، وانقاد له، وعمل به، وفوض أمره لله، وتوكل عليه.

الثانية : والمؤمنين والمؤمنات .

والمؤمن : هو المصدق بالله ورسوله، ولله ولرسوله فى كل شئ.

الثالثة : والقانتين والقانتات.

والقانت : هو المواظب على طاعة الله ورسوله.

الرابعة : والصادقين والصادقات .

والصادق : هو من صدق فى .. نيته، وقوله، وفعله، ولا يعرف الكذبُ إليه طريقاً.

الخامسة : والصابرين والصابرات.

والصابر : هو المحافظ على الطاعة، البعيد عن المعصية، الراضى فى البلاء، الثابت فى ميدان الجهاد.

السادسة : والخاشعين والخاشعات.

والخاشع : هو المتواضع لله، بقلبه وجوارحه، والخائف من غضبه وعذابه، المراقب لله فى كل حال.

السابعة : والمتصدقين والمتصدقات.

والمتصدق : هو الباذل لماله، دون بخل به، فى : الفرض، والنفل، والصلات.
الثامنة : والصائمين والصائمات.
والصائم : هو الممتنع عن شهوة الكلام فيما لا يفيد، وشهوة البطن الحرام ، أو التى تشغل عن العبادة.
التاسعة : والحافظين فروجهم والحافظات.
والحافظ لفرجه : هو من لا يتعرى أمام الغير، ولا يطلع على عورة الغير، والذى يمتنع عن شهوة الفرج الحرام ، أو التى تشغل عن الطاعة.
العاشرة : والذاكرين الله كثيراً والذاكرات .
والذاكر لله : هو من يسبح بحمد الله، ويقرأ القرآن، ويشتغل بالعلم النافع.
هؤلاء : أعد الله لهم مغفرة منه لذنوبهم وأجراً عنده عظيماً لهم، وهو الجنة.

* * *

إخوة الإسلام والإيمان ..!!
لما كانت أول هذه الصفات المذكورة ٠٠ هى الإسلام ..!!
كان من الضرورى بيان أهم مظاهر هذا الإسلام ..
وهو : التسليم الكامل لله ولرسوله.
يقول تعالى :

{ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً مُّبِيناً }
[الآية ٣٦]

يعنى : إذا حكم الله ورسوله بشئ فى أى أمر ٠٠ فليس لأحد مخالفته، بل لا اختيار لأحد فى هذه الحالة.
ومن يعص الله ورسوله بعد معرفة هذا الحكم ، فى أى أمر أو نهى :فقد ضل ضلالاً مبيناً.
وهذا الضلال المبين ..
يكون كفراً : إذا عاند حكم الله، وأنكره .
ويكون فسوقاً : إذا قبل الأمر، وآمن به، ولكنه لم يفعله.

* * *

وإذا كان من أهم مظاهر الإسلام .. التسليم الكامل لله ولرسوله : فإن السورة تذكر واقعة عملية فى الحياة النبوية ، تعطينا لوناً من هذا التسليم ؛ تعليماً لنا، وتدريباً على حسن الاقتداء.
يقول تعالى للنبى صلى الله عليه وسلم.

{ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً }

[الآية ٣٧]

هذه الآية الكريمة ..

لها قصة : يحرفها أعداء الإسلام ، ويطعنون بها على دين الله، ويتغامزون بها على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وهذه القصة باختصار شديد فى أصح رواياتها : أن النبى صلى الله عليه وسلم خطب زينب بنت جحش ابنة عمته لزيد بن حارثة، الذى كان عبده، ثم اعتقه وتبناه، ثم أبطل الإسلام التبنى ، فأصبح مولاه وفتاه.

لذلك : لم ترض زينب النسيبة الشريفة بهذا الزواج..!!

فلما نزل قوله تعالى وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة ..: قبلت.

وتزوجت زينب زيداً.

ثم حدثت بينهما خلافات: وصلت إلى حافة الطلاق.

وأراد الله عز وجل أن يلغى عادة جاهلية ..

وهى : عدم الزواج من زوجة الابن المُتَبَنَّى ..

فأعلم محمداً – صلى الله عليه وسلم – بأنه : سيكون لها زوجاً.

وجاء زيد يشتكى لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – حياته مع زينب، ويريد طلاقها.

ماذا يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ..؟

أيقول له طلقها، وأتزوجها أنا، ويظهر ما بنفسه من أمر زواجه منها، كما علم بالوحى: فيتحدث الناس ..!!

أو ينصحه بالصبر وحسن العشرة، ويقول له أمسك عليك زوجك حتى يأذن الله بأمر آخر ، يكون فيه المخرج من هذا المأزق.

واختار الثانية..!!

وقال له أمسك عليك زوجك.

ونزل القرآن يشرع ويعاتب ويقول :

وإذ تقول للذى أنعم الله عليه بالإسلام وأنعمت عليه بالحرية :

أمسك عليك زوجك أى : زينب واتق الله ولا تطلقها؛ فإن أبغض الحلال عند الله الطلاق.

تقول له ذلك، و أنت تخفى فى نفسك ما أوحى إليك من زواجها، وما هو الله مبديه ومظهره للناس؛ لأنه تشريع..!!

وتخشى الناس وكلامهم والله أحق أن تخشاه فى طاعته..!!

وبالفعل ..

لم يعلم زيد ولا الناس ، ما فى نفس الرسول صلى الله عليه وسلم ، مما أوحى إليه فى هذا الموضوع.

واستمرت الحياة الزوجية فترة بين زيد وزينب.

فلما قضى زيد منها وطراً أى حاجته فى عيشته منها، واستحالت المعيشة بينهما: طلقها، وانقضت عدتها .

تزوجها النبي صلى الله عليه وسلم ؛ تنفيذا لأمر الله تعالى .

حيث يقول سبحانه زوجناكها بوحينا، وأمرنا.
وكان ذلك الحادث ..!!
ومعك أنت يا محمد ..!!
لكى لا يكون على المؤمنين حرج فى زواجهم من أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً.
وكان أمر الله :نافذاً.
وكان شرعه مطبقاً :مفعولاً.

* * *

ثم يرد الله عز وجل على من تغامزوا أو يتغامزون على النبى صلى الله عليه وسلم فى هذا الموضوع .. بقوله :

{ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَّقْدُوراً }
[الآية ٣٨]

يعنى : ليس على النبى صلى الله عليه وسلم حرج فى تنفيذ شرع الله، المخالف لعاداتكم .
فهذه :سنة الله فى الأنبياء الذين خلوا وسبقوا من قبل محمد صلى الله عليه وسلم.
حيث لم يكن رب العزة يأمرهم بشئ، ويكون عليهم فيه حرج، أو لديهم خشية من أحد.
وكان أمر الله الذى قضاه وقدره : قدراً مقدوراً حكماً نافذً لا محالة .
فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

* * *

هؤلاء الأنبياء .. هم :

{ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلاَ يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلاَّ اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً }
[الآية ٣٩]

نعم .. هم الذين يبلغون رسالات الله إلى الناس بأمانة، ويطبقونها كاملة، وبدقة ويخشونه وحده، مرضاة لله ولا يخشون أحداً أبداً إلا الله.
وبذلك : فلا يمنعهم بطش، ولا خوف، ولا أذى، من تبليغ رسالات الله إلى البشر.
وكفى بالله لهم حسيباً معيناً وناصراً ومؤيداً.

* * *

ثم إنه ..

{ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً }
[الآية ٤٠]

يعنى : ما كان محمد أبا أحد حقيقى من صلبه من رجالكم وتزوج مطلقته ؛ حتى تهيجوا هذا الهياج، وتتحاملوا عليه هذا التحامل.

ولكن هو رسول الله أقواله، وأفعاله، وإقراراته : تشريع.

و هو خاتم النبيين فلا نبى بعده، ولا تشريع بعده .

لذلك : لابد من كمال البيان وتمام التشريع ، فى حياته.

وكان الله بكل شئ مما تقولون عليماً وسيجازيكم عليه.

* * *

ثم يأمر الله عباده المؤمنين بذكره وتسبيحه ؛ وصولاً لهداية الله، ونوالاً لمرضاته، وفوزاً بجناته.

إذ يقول سبحانه :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً * هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً * تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً }
[الآيات ٤١-٤٤]

ذكر الله تعالى فريضة : أمر بها ، لا حد لها، ولا وقتاً مخصوصاً، ولا عذر فى تركها.

بل هى فى كل وقت وحال.

يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ونعمه ذكراً كثيراً.

و كذلك سبحوه ونزهوا ذاته عما لا يليق بكرة وأصيلاً أول النهار وآخره.

حيث إنه سبحانه هو الذى يصلى عليكم يرحمكم وملائكته يستغفرون لكم : ليخرجكم بفضله من الظلمات إلى النور.

و هكذا كان الله بالمؤمنين رحيماً.

وهذا : فى الدنيا.

وفى الآخرة :تحيتهمأى هؤلاء المؤمنينيوم يلقونه ويرونه سلام من الله لهم .

وأعد لهم كذلك أجراً كريماً وهو الجنة وما فيها مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

* * *

أيها الأحبة فى الله ..

أرشد الله النبى صلى الله عليه وسلم فيما سبق – إلى آداب التعامل مع ربه: فى قوله تعالى يا أيها النبى اتق الله .

واتبع ما يوحى إليك من ربك.

وتوكل على الله.

وأرشد – كذلك – إلى آداب التعامل مع أهله خاصة : فى قوله تعالى يا أيها النبى قل لأزواجك.

وهنا : يرشده إلى آداب التعامل مع الخلق عامة.

فيقول :

{ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً * وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيراً * وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيراً * وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً }

[الآيات ٤٥–٤٨]

فى هذه الآيات الكريمات : يصف ربنا نبيه صلى الله عليه وسلم ، بخمس صفات، ويطالبه بخمسة أشياء.

يا أيها النبى إنا أرسلناك برسالتنا إلى العالمين.

وجعلناك موصوفاً بهذه الصفات:

الأولى : شاهداً لله بالوحدانية، وعلى الناس يوم القيامة.

الثانية : ومبشراً للمؤمنين بفضل الله ورضوانه.

الثالثة : ونذيراً للكافرين والعصاة ، بالعذاب.

الرابعة : وداعياً إلى دين الله وشرعه بإذنه هو، وليس من عندك أنت.

الخامسة : وسراجاً منيراً هادياً واضحاً، يستفيد من هديك جميع البشر.

وكلفناك بهذه المطالب:

الأول : وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً.

الثانى : ولا تطع الكافرين فى أمر الدعوة، ولا فيما يطلبون من تغيير أو إهمال أحكامها، أو بعض ذلك .

الثالث : والمنافقين أى : ولا تطع المنافقين، فلا تسمع لهم ولا منهم ، ما يقولون.

الرابع : ودع أذاهم أى : اترك مجازاتهم على أذيتهم لك، حتى نأمرك بالذى تفعله معهم .

الخامس : وتوكل على الله فإن من توكل على الله يسر عليه كل عسير.

وكفى بالله وكيلاً يكفيك ما تريد.

* * *

وبعد ..

فإن الآيات التالية : تأتى بنموذج من أحكام الإسلام ، التى يدعو إليها النبى صلى الله عليه وسلم، والذى يكون سراجاً هادياً للناس فى حياتهم بها.

يقول ربنا سبحانه :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً }

[الآية ٤٩]

يعنى : يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم أى : عقدتم عقد الزواج على المؤمنات أو الكتابيات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن أى : تجامعوهن.

فذلك النكاح يترتب عليه ثلاثة أشياء :

الأول : أنه لا عدة على هذه المطلقة فما لكم عليهن من عدة تعتدونها أى: تحصونها.

وهذا : فى كل امرأة طلقت قبل الدخول ، إلا المتوفى عنها زوجها ،قبل الدخول ، فعليها أن تعتد أربعة أشهر وعشراً.

الثانى : لها المتعة ، وهى النفقة الواجبة لها ،على قدر حاله ومتعوهن وذلك إن لم يسم لها مهر.

الثالث : التسريح بالحسنى وسرحوهن سراحاً جميلاً أى من غير إضرار منهن.

* * *

ثم تأتى الآيات بعد ذلك : بنموذج آخر من أحكام الإسلام، الخاصة بالنبى صلى الله عليه وسلم.

إذ يقول ربنا عز وجل :

{ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً }

[الآية ٥٠]

والمعنى :يا أيها النبى إنا أحللنا لك من النساء ..

سبعة أصناف :

الصنف الأول : أزواجك اللاتى فى عصمتك، و هن اللاتى آتيت دفعت أجورهن أى : مهورهن، وكن تسعاً، رضى الله عنهن.

الصنف الثانى : وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك من غنائم الحرب، بالسبى من الكفار، مثل السيدة صفية، والسيدة جويرية، حيث ملكهما صلى الله عليه وسلم، فأعتقهما، وتزوجهما.

الصنف الثالث والرابع والخامس والسادس : وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتى هاجرن معك.

وكانت الهجرة : شرطاً فى حل هذه الأصناف الأربعة ..

ثم نسخ.

الصنف السابع : وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبى بلا مهر.

ولهذا الصنف شرطان .. هما :

موافقة النبى صلى الله عليه وسلم إن أراد النبى أن يستنكحها.

خصوصيَّة صلى الله عليه وسلم به خالصة لك من دون المؤمنين.

وأما غير النبى صلى الله عليه وسلم فى الواهبة نفسها: فلا تحل له إلا بمهر.

هذا الذى ذكر – أيها الأحبة فى الله – حكم النبى صلى الله عليه وسلم مع نسائه.

ولكى لا يظن واحد من المؤمنين ، أن له ما للنبى صلى الله عليه وسلم من هذه الخصائص : فإن ربنا عز وجل يقول :

قد علمنا أى : عندنا علم ما فرضنا وأوجبنا عليهم يعنى : على المؤمنين فى حق أزواجهم وما ملكت أيمانهم ونبينها لهم، أى : فى غير هذا الموضع.

ثم يقول ربنا للحبيب صلى الله عليه وسلم.

وقد وسعنا لك فى أمر الزواج : لكيلا يكون عليك حرج وضيق، وتكون فى فسحة ؛ من الأمر بما يتناسب مع دعوتك ، ونشر رسالتك.

وكان الله غفوراً رحيماً لجميع الذنوب رحيماً بعباده.

* * *

كذلك :

{ تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلاَ يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَلِيماً }

[الآية ٥١]

والمعنى : لا حرج عليك فى القسم بالنسبة لمن ذُكِرْنَ من النساء ، والأمر لك فى شأنهن، فتقدم من شئت، وتؤخر من شئت.

ترجى أى : تؤخر من تشاء منهن عن نوبتها وتؤى تقدم من تشاء منهن عن نوبتها ، ولا حرج عليك.

و كذلك من ابتغيت أردته ممن تركت من هؤلاء النسوة : فلا جناح أى : حرج عليك أيضاً.

ذلك التخيير لك فى هذا الموضوع :أدنى أى أقرب أن تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتيتهن كلهن .

حيث إنهن إذا علمن إن هذا التفويض لك هو من عند الله : استراحت نفوسهن، وذهب التغاير بينهن، وجعل الرضا منهن، وقرت العيون.

فإذا قسمت بعد ذلك : استبشرن، وفرحن بذلك، وعرفن جميلك عليهن ،فى تسويتك وإنصافك وعدلك معهن.

وكان الله عليماً بذات الصدور حليماً لا يعاجل بالعقوبة عند المخالفة.

* * *

هذا ..

ولما خير رسول الله صلى الله عليه وسلم أزواجه عندما نزل عليه قوله تعالى من نفس السورة يا أيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلاً * وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للحسنات منكن أجراً عظيماً..!!

وقد عرفنا – أيها الكرام – أنهن جميعاً، رضوان الله عليهن : قد اخترن الله ورسوله والدار الآخرة.

وذلك فيما سبق.

نقول لما اخترن ذلك : كافأهن الله تعالى .

وذلك بقوله للنبى صلى الله عليه وسلم :

{ لاَ يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلاَ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلاَّ مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيباً }

[الآية ٥٢]

أى : لا يحل لك يا محمد النساء أى : الزواج بهن من بعد هؤلاء الزوجات التسع ، اللاتى قد اخترن الله ورسوله والدار الآخرة، ولا يحل لك كذلكأن تبدل بهن من أزواج عن طريق طلاق واحدة وزواج أخرى مكانها، حتى ولو أعجبك حسنهن.

وبذلك : أصبح التسع الزوجات ، هُنَّ نصاب النبى صلى الله عليه وسلم.

كما أن الأربع الزوجات : هن نصاب الرجال من أمته.

وكان الله على كل شئ رقيباً أى : حفيظاً.

* * *

يقول العلماء : وكانت هذه الآية، وهذا الحكم ، وهو تحريم الزواج على النبى من غير هؤلاء الزوجات التسع، أو الاستبدال بهن الإماء؛ مكافأة لهن على اختيارهن لله ولرسوله والدار الآخرة.

ثم نسخ هذا الحكم ..

وأبيح للنبى صلى الله عليه وسلم أن يتزوج ما يشاء.
ومع ذلك : لم يقع منه بعد ذلك زواج.

* * *

أيها الأحبة فى الله ٠٠
إذا كان ما تقدم هو بعض حقوق نساء النبى – صلى الله عليه وسلم – عليه ٠٠!!
فإن الله تبارك وتعالى يذكر عقيبها بعض حقوقهن – رضى الله عنهن –على أمة الحبيب صلى الله عليه وسلم ٠٠
فيقول :

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلا مُسْتَئْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيماً * إِن تُبْدُوا شَيْئاً أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً }
[الآيتان ٥٣ ، ٥٤]

هذه الآية الكريمة توضح : أحكاماً أربعة على المسلمين ٠٠
هى من حقوق النبى صلى الله عليه وسلم وآل بيته الكرام.

الحكم الأول : عدم دخول بيوت النبى –صلى الله عليه وسلم – بدون إذن.
يقول تعالى يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى إلا أن يؤذن لكم دخولها من النبى صلى الله عليه وسلم.
فمثلاً : إذا دعيتم إلى طعام فادخلوا غير متطفلين ، و ناظرين إناه منتظرين موعد نضجه، لتدخلوا بدون دعوة ولكن إذا دعيتم فادخلوا وكلوا.
فإذا طعمتم وانتهيتم من أكلكم فانتشروا واخرجوا ولا تمكثوا متسأنسين لحديث مع بعضكم البعض.
حيث إن ذلكم الفعل كان يؤذى النبى ممن يفعله فيستحى منكم أن يُخرج من يفعل ذلك.
والله لا يستحى من بيان الحق والأمر به٠٠!!
ولذلك قال :فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث ٠٠!!
ويلاحظ : أن هذا تأديب من الله للثقلاء.

الحكم الثانى : فرضية الحجاب على أزواج النبى صلى الله عليه وسلم.
يقول سبحانه : وإذا سألتموهن أى : زوجات النبى متاعاً حاجة فاسألوهن هذه الحاجة من وراء حجاب ساتر.
ذلكم الحكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن من خواطر الشيطان، وأسلم من عوارض الفتن.

الحكم الثالث : تحريم إيذاء النبى صلى الله عليه وسلم مادياً أو معنوياً.

يقول تعالى وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله.

يعنى : كل ما منعتم فيه مع النبى صلى الله عليه وسلم، أو مع زوجاته ٠٠ فالتزموا به، وحافظوا عليه، ولا تؤذوه بالمخالفه فيه، أو فى غيره.

الحكم الرابع : تحريم نكاح أزواج النبى صلى الله عليه وسلم لأحد من بعده، حياً أو ميتاً.

يقول تبارك وتعالى ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً.

ويختم ربنا هذه الأحكام بقوله سبحانه :

إن ذلكم أى : مخالفة هذه الأحكام كان عند الله ذنباً عظيماً أى : فاجتنبوه.

ثم قال عز وجل : إن تبدوا شيئاً من إيذاء النبى صلى الله عليه وسلم، أو نكاح زوجاته، أو تخفوه فى أنفسكم : فإن الله كان بكل شئ عليماً فيجازيكم عليه.

* * *

أيها الأحباب فى الله ٠٠

فى هذه الأحكام ٠٠

كانت فرضية الحجاب على زوجات النبى صلى الله عليه وسلم٠٠!!

ولذلك : عندما فرض ٠٠

قال آباء هؤلاء الزوجات وأبناء بعضهن : يا رسول الله ٠٠!

أو نُكَلِّمُهُنَّ نحن أيضاً من وراء حجاب.

فأنزل الله تعالى : توضيحاً للدائرة التى لا يجب الاحتجاب منها ٠٠

قوله سبحانه .

{ لاَ جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلاَ أَبْنَائِهِنَّ وَلاَ إِخْوَانِهِنَّ وَلاَ أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلاَ أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلاَ نِسَائِهِنَّ وَلاَ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً }

[الآية ٥٥]

أولاً : المراد من قوله تعالى ولا نسائهن النساء المؤمنات، والمراد من ولا ما ملكت أيمانهن من الإماء، دون العبيد الذكور.

وعلى ذلك : فمعنى الآية ٠٠ أنه لا حرج ولا إثم على نساء النبى أن يتعاملن مع هذه الأصناف المذكورة فى الآية، بدون حجاب.

ثم يقول تعالى لهن واتقين الله فيما أمرتن بالتحجب منه من غير هؤلاء.

إن الله كان على كل شئ شهيداً رقيباً وعالماً ومجازياً.

***

وبعد بيان هذه الأحكام : يبين الله عز وجل منزلة النبى صلى الله عليه وسلم عنده فى الملأ الأعلى، ويأمر أهل العالم السفلى بالصلاة والتسليم عليه.

وذلك : يوضح أهمية التقيد بالآداب والأحكام السابقة، مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكذلك تعظيمه فى العالمين العلوى والسفلى.

حيث يقول :

{ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً }
[الآية ٥٦]

صلاة الله على النبى : ثناؤه عليه، ومَدْحُه له.

وصلاة الملائكة : دعاء واستغفار.

وصلاة الأمة : الدعاء، والتعظيم لأمره.

وقد أمر الله تعالى عباده بالصلاة والتسليم عليه : أى صلوا عليه وسلموا، وانقادوا لأمره وحكمه ؛ طلباً للثواب، والقرب منه.

صلى الله وسلم عليك يا سيدى يا رسول الله.

* * *

ثم ...

يهدد الله عز وجل من يؤذون الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ..

بقوله :

{ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُّهِيناً }
[الآية ٥٧]

يعنى : إن الذين يؤذون الله ورسوله بما يكرهانه .

كمن يكفرون بالله، وينسبون إليه الولد أو الشريك.

ومن يكذبون النبى صلى الله عليه وسلم، أو يحاربون سنته وشريعته.

هؤلاء :

أولاً : لعنهم الله وطردهم من رحمته فى الدنيا والآخرة.

ثانياً : أعد لهم فى الآخرة عذاباً مهيناً.

* * *

ولأن إيذاء المؤمنين والمؤمنات : مما يكرهه الله ورسوله ..!!
فقد هدد الله عز وجل – كذلك – من يفعل ذلك، أو يتسبب فيه ..
بقوله سبحانه :

{ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً }
[الآية ٥٨]

أى : إن الذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بأى لون من ألوان الإيذاء، بغير ما اكتسبوا أى : دون ذنب جنوه، أو إثم ارتكبوه، ووجب فيه الحد، أو التعزير فقد احتملوا يعنى : تحملوا بهتاناً وإثماً مبيناً.
ويدخل فى هذا الإيذاء :
المادى : كالتعذيب، والتخويف .
والمعنوى : كالسخرية، والاستهزاء، والتنقيص من قدرهم.

* * *

ولما نهى الله تبارك وتعالى عن إيذاء المؤمنات : أمرهن بفعل ما يدفع الأذى عامة عنهن ، من : التستر، والبعد عن مواطن الشبهات.
حيث قال سبحانه :

{ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً }
[الآية ٥٩]

فى هذه الآية الكريمة : يأمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم ، أن يأمر النساء المسلمات– خاصة أزواجه وبناته ؛ لشرفهن، وكونهن قدوة لغيرهن – أن يدنين عليهن من جلابيبهن، وأن يتسترن ويحتشمن فى ملابسهن.
ذلك التستر أدنى أى : أقرب أن يعرفن به، أنهن كريمات فضليات فلا يؤذين من أهل الفسق ، الذين يتعرضون للنساء بما لا يليق.
وكان الله غفوراً رحيماً لمن تكشفت قبل أن تعرف هذا الحكم، والتزمت به بعد أن عرفته.

* * *

ولما ذكر ربنا ثلاثة أصناف من المجاهرين بالإيذاء :

وهم الذين يؤذون الله :

والذين يؤذون رسول الله .

والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا ..

وهددهم.

ذكر سبحانه كذلك : ثلاثة أصناف من المسرين بالإيذاء.

وهم : المنافقون .

والذين فى قلوبهم مرض .

والمرجفون فى المدينة.

وهددهم.

بقوله تعالى :

{ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلاً * مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيــلاً * سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً }

[الآيات ٦٠-٦٢]

أى : لئن لم ينته ويتوقف.

المنافقون وهم الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر .. عن نفاقهم.

والذين فى قلوبهم مرض أى : شك وغل وفجور، حامل على المعاصى .. عن شكهم، وغلهم، وفجورهم.

والمرجفون فى المدينة وهم الذين يُرَجّون الإشاعات الكاذبة .. عن فعلهم هذا ..

لئن لم ينته هؤلاء عن : عداوتهم للمسلمين، وفجورهم فيهم، ونشرهم الإشاعات الكاذبة بينهم ..

لنغرينَّك بهم أى : لنسلطنك عليهم ..

وهذا أولاً.

وثانياً : ثم لا يجاورنك فيها إلا زماناً قليلاً أى: لتطردنهم من المدينة سريعاً، وهم ملعونين مبعدين من رحمة الله.

وثالثاً : أينما ثقفوا أى : وجدوا بعد طردهم أخذوا وقتلوا تقتيلاً.

ويلاحظ : أن هذه هى سنة الله فى أمثالهم من الذين خلوا أى : سبقوا من قبل فى الأمم الماضية.

ولن تجد لسنة الله تبديلاً أى : تغييراً.

* * *

ولما بين الله عز وجل حالهم وأمثالهم فى الدنيا ٠٠ من أنهم :
يهانون، ويلعنون، ويقتلون ٠٠
بين كذلك حالهم وأمثالهم فى الآخرة ٠٠وذكرهم بالقيامة، وما يكون لهم فيها٠٠
فقال تبارك وتعالى :

{ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً * إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً * خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً لاَّ يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً * يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولاَ * وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاَ * رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً }
[الآيات ٦٣-٦٨]

يسألك الناس هؤلاء وأمثالهم عن موعد الساعة وهى يوم القيامة : سؤال استهزاء واستنكار، واستعجال ٠٠!!

أجبهم، وقل لهم : لا علم لى بذلك إنما علمها عند ربى وحده سبحانه.
وقل لهذا السائل : وما يدريك لعل الساعة تكون قريباً.
فهل آمنت بها ؟
وماذا أعددت لها ٠٠؟
يا أيها المستهزؤن ٠٠!!
إن الله لعن الكافرين طردهم من رحمته.
وأعد لهم سعيراً ناراً شديدة، يدخلونها خالدين فيها أبداً لا خروج لهم منها، ولا زوال لهم عنها، كما أنهم لا يجدون لهم فيهاولياً ولا نصيراً ينقذهم من عذابها.
هؤلاء ٠٠يوم تقلب وجوههم فى النار حينئذ يقولون بتحسر وندم لا يفيد : يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا حتى لا نلقى هذا المصير.
وقالوا معللين لكفرهم :ربنا إنا أطعنا سادتنا رؤساءنا وكبراءنا ذوى الحسب والنسب فينا، واعتقدنا أن عندهم شيئاً، وأنهم على شئ فأضلونا السبيلا أى : ضللونا عن طريق الهدى.
ثم يدعون عليهم قائلين : ربنا آتهم ضعفين من العذاب جزاء كفرهم هم، وجزاء إغوائهم لنا، و كذلك العنهم واطردهم من رحمتك لعناً كبيراً.

* * *

أيها الأحبة فى الله ٠٠
لقد هدد الله كل الذين يؤذون الله ورسوله والمؤمنين بصفة عامة ،بعذاب أليم، فيما سبق من الآيات الكريمة.
وهنا : يحذر المؤمنين بصفة خاصة، من إيذاء النبى صلى الله عليه وسلم ٠٠ بأى لون من الألوان.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً }
[الآية ٦٩]

يعنى : يا أيها الذين آمنوا لا تؤذوا نبيكم، وتكونوا معه بذلك كالذين آذوا موسى بوصفه بما ليس فيه فبرأه الله مما قالوا عنه وكان عند الله وجيهاً أى : صاحب منزلة عالية.

* * *

ثم يرشد الله المؤمنين إلى ما ينبغى أن يصدر منهم من الأفعال والأقوال ٠٠
فقال :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً }
[الآيتان ٧٠ ، ٧٠]

يا أيها الذين آمنوا عليكم بأمرين؛ لتنالوا نتيجتين طيبتين :
أما الأمران ٠٠ فهما :

الأول : اتقوا الله بفعل الخير، وترك الشر.
الثانى : وقولوا قولاً سديداً أى : صدقاً صائباً.
وأما النتيجتان ٠٠ فهما :
الأولى : يصلح لكم ربكم أعمالكم فتكون سبباً فى دخولكم الجنة.
الثانية : يغفر لكم ذنوبكم السابقة بمحوها، والمستقبلة بإلهامكم التوبة منها.
هذا ٠٠
وبتقواكم لله، وقولكم قولاً سديداً : تكونوا قد أطعتكم ربكم.
ومن يطع الله فقد فاز فى الدنيا والآخرة فوزاً عظيماً.

* * *

وليكن معلوماً ٠٠ أن تقوى الله، والقول السديد – كما هو واضح – طاعة.
والطاعة من الفروض.
والفروض تكليف ٠٠!!
والتكليف أمانة ٠٠!!

وفى حمل الأمانة مشقة.
لذلك يقول ربنا تبارك وتعالى :

{ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً * لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً }
[الآيتان ٧٢ ، ٧٣]

يعنى : إنا عرضنا حمل الأمانة وهى الفروض، التى فى فعلها ثواب، وفى تركها عقاب على السموات والأرض حيث خلق ربنا فيهما فهماً ونطقاً.
أتدرون ماذا كان موقفهم ..؟
يقول ربنا سبحانه :
فأبين أن يحلمنها من غير معصية؛ حيث أشفقن منها أى : من عدم قدرتهم على القيام بواجباتها؛ تعظيماً لدين الله.
فقبل الله اعتذارهما.
وعرضها على الإنسان.
وحملها الإنسان على ضعفه، فى الوقت الذى اعتذر عنها ما هو أقوى منه.
ولذلك يقول عز وجل :
إنه أى : الإنسان كان ظلوماً لنفسه جهولاً بحجمه وقدره؛ حيث حملها، ولم يف بها.
وكان حملها على هذا النحو :
ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الذين ظلموا فحملوا الأمانة، وجهلوها فخانوها.
ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات لوفائهم بعهدهم، وأدائهم للأمانة التى حملوها.
وكان الله غفوراً للتائبين رحيماً بالمؤمنين.

* * *

بقلم فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

الدخان

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة : مكية.
وهى تبدأ بقوله تعالى :

{ حـــم * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ }
[الآيات : ١ – ٣]

هذا قسم وجوابه.
حيث يقسم الله تعالى بـــ حم * والكتاب المبين وهو القرآن الواضح الموضح أنه سبحانه أنزله فى ليلة مباركة إنا أنزلناه أى : القرآن الكريم فى ليلة مباركة وهى ليلة القدر.
ثم يقول عز وجل : إنا كنا به منذرين أى : معلمين الناس به وفيه ما ينفع الناس وما يضرهم؛ لتقوم عليهم الحجة.

* * *

ثم زاد ربنا تبارك وتعالى بيانه لهذه الليلة فقال :

{ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ }
[الآية : ٤]

أى : فى هذه الليلة المباركة، وهى ليلة القدر يفرق يفصل ويحدد كل أمر من أحوال الكون والعباد حكيم أى : محكم.

* * *

ثم زاد ربنا تبارك وتعالى تعظيمه لهذا الأمر فقال :

{ أَمْراً مِّنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ * رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ }
[الايتان : ٥ ، ٦]

أى : هذا الأمر العظيم، الذى يفرق فى هذه الليلة أمراً من عندنا كما اقتضاه علمنا وتدبيرنا إنا كنا مرسلين الرسل بالكتب رحمة من ربك.
حيث إنه سبحانه هو السميع العليم.

* * *

ثم زاد ربنا تبارك وتعالى وصفه لنفسه؛ تعليماً لنا فقال :

{ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ * لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ }
[الآيتان :٧ ، ٨]

أى : جاءت الرسل بالكتب رحمة من ربك إنه هو السميع العليم *رب السموات والأرض وما بينهما الخالق لكل شئ، المالك لكل شئ.
إن كنتم موقنين مصدقين بذلك فآمنوا به.
لا إله إلا هو يحيى ويميت سبحانه وتعالى هو ربكم ورب آبائكم الأولين لا يترككم دون إرشاد وهداية.

* * *

فهل آمنوا، واهتدوا؟
كلا

{ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ }
[الآية : ٩]

أى : جاءهم الحق، وقامت أمامهم أدلة البعث، ولكنهم فى شك من كل ذلك وهم لاهون يلعبون استهزاءً بهذا الحق، وبمحمد صلى الله عليه وسلم الذى جاء لهم بهذا الحق.

* * *

لذلك : يهددهم المولى وينذرهم، بقوله :

{ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ * يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ }
[الآيتان : ١٠ ، ١١]

فارتقب فانتظر أيها المؤمن يوم تأتى السماء بدخان مبين واضح ظاهر عام، وهو علامة من علامات الساعة.
يغشى الناس يعم الناس جميعاً.
فيصاب المؤمن منه بما يشبه الزكام، ويصير الكافر منه كالسكران، يدخل جوفه، ويخرج من كل منافذ بدنه.
وهنا : يقول الكافرون هذا عذاب أليم.

* * *

ثم يقولون أيضاً :

{ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ }
[الآية : ١٢]

أى : ربنا اكشف وخفف وارفع عنا هذا العذاب إنا مؤمنون إذا رفعته عنا.

* * *

فيكون الجواب :

{ أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ * ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ * إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ * يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ }
[الآيات : ١٣ — ١٦]

أنى لهم الذكرى كيف يفون بهذا الوعد وقد جاءهم بالحق رسول مبين واضح فى عرضه عليهم، واضح فى دعوتهم إليه.

ثم لم يجيبوه بل تولوا وأعرضوا عنه وقالوا عنه إنه معلم من جهة البشر، وليس رسولاً ولكنه مجنون.
على أية حال :

إنا كاشفوا العذاب قليلاً أى : لو كشفنا عنكم العذاب زماناً قليلاً إنكم عائدون لا محالة إلى الكفر.
انتظروا العذاب الحقيقى الأليم يوم نبطش البطشة الكبرى فى يوم القيامة إنا منتقمون منكم؛ لكفركم، وعنادكم.

* * *

ولما بين ربنا عز وجل إصرار كفار هذا العصر على الكفر بين أن أكثر المتقدمين كانوا كذلك أيضاً.
ومن هؤلاء المتقدمين : قوم فرعون.
يقول عنهم القوى العزيز.

{ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ * أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * وَأَنْ لاَّ تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ * وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ * فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ * فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ * وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْواً إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ * كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ * فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ }
[الآيات : ١٧ – ٢٩]

ولقد فتنا اختبرنا قبلهم أى : قبل كفار هذا العصر قوم فرعون وهم أهل مصر القدماء.
و ذلك أن جاءهم مرسل من عندنا رسول كريم شريف، وهو موسى عليه السلام، يدعوهم للإيمان.
قال لهم :
أولاً : أن أدوا إلىّ عباد الله سلموا لى وأرسلوا معى بنى إسرائيل، وخلصوهم من هذا العذاب المهين.
ثانياً : إنى لكم رسول من الله الذى خلقكم أمين فى رسالتى إليكم، ودعوتى إياكم.
ثالثاً : وأن لا تعلوا على الله فتتكبروا على دعوته، وتتمنعوا عن شريعته، وتحاربوا رسله.
رابعاً : إنى آتيكم لأثبت لكم صدقى بسلطان مبين.
خامساً : وإنى عذت واحتميت بربى وربكم من أن ترجمون بالحجارة، وتقتلون، بسبب هذه الدعوة.
سادساً : وإن لم تؤمنوا لى فلا ألزمكم ولكن لا تتعرضوا لى بالأذى فاعتزلون اتركونى وشأنى لكم دينكم ولى دين[الكافرون :٦].

* * *

ومع هذه الدعوة القوية، والطلبات الواضحة التى عرضها موسى عليه السلام لم يؤمنوا به، ولم ينفذوا منها شيئاً، بل حاربوه، وآذوه.
لذلك : دعا عليهم .
يقول المولى سبحانه :

{ فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ }
[الآية : ٢٢]

لا تنفع فيهم نصيحة، ولا يستجيبون لدعوة، ولا يفون بعهد، وإنى أريد الخلاص منهم، والنجاة من شرهم.

* * *

واستجاب الله دعاءه !!
وأوحى إليه قائلاً :

{ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ * وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْواً إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ }
[الآيتان : ٢٣ ، ٢٤]

فأسر أى : سر بعبادى، واخرج بهم من مصر ليلاً لأن فرعون لن يتركهم لك كما طلبت، بل إذا خرجت بهم إنكم متبعون منهم، يعنى : سيتعقبونكم، ويخرجون وراءكم لإعادتكم.
لذلك : إذا وصلت بهم إلى البحر فادخل فيه، ومعك قومك، واتركه رهواً مفتوحاً، كما هو حسب ما صنعنا ذلك، ليدخلوا فيه خلفك؛ حيث إنهم جند مغرقون فيه بقدرتنا.

* * *

وفعل موسى عليه السلام، ونجا، وهلك فرعون الطاغية، وهلك جنده الذين أطاعوه فى الباطل، وساعدوه عليه.
يقول تعالى عن هؤلاء الهالكين :

{ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ * فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ }
[الآيات : ٢٥ – ٢٩]

يعنى : ترك هؤلاء الهالكون هذه الأشياء الخمسة : الجنات وهى البساتين، وعيون الماء، والزروع الكثيرة، والمقام الكريم، أى : الإقامة الحسنة الهادئة، والنعمة السابغة التى كانوا يرفلون فيها، ويتفكهون بها.
كذلك شأن المكذبين المجرمين فى كل العصور.

وأورثناها أى : هذه النعم قوماً غيرهم آخرين.
وضاع كل شئ من هؤلاء المجرمين.
بل ضاع هؤلاء المجرمون أنفسهم.
فما بكت عليهم السماء والأرض ولا من فيهما، بل فرح الجميع بهلاكهم.
وما كانوا منظرين أى : ممن يتأخر عنهم العذاب، أملاً فى صلاح حالهم.

* * *

ثم يقول سبحانه وتعالى عن الناجين من ظلم فرعون.

{ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ * مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِياً مِّنَ الْمُسْرِفِينَ * وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ }
[الآيات : ٣٠ – ٣٣]

ولقد نجينا بقدرتنا بنى إسرائيل من العذاب المهين الذى كانوا يعانونه من فرعون وقومه.
إنه أى : فرون كان عالياً متكبراً متجبراً من المسرفين فى كبره وجبروته، وظلمه للآخرين.
ولقد اخترناهم أى : بنى إسرائيل لحمل رسالتنا بعد أن نجيناهم على علم منا بما سيؤل إليه أمرهم، وميزناهم على العالمين المعاصرين لهم، من الأمم الأخرى، والطوائف المتعددة من البشر، لتكون فى أيديهم كل وسائل النجاح فى حمل الرسالة، وأداء الأمانة.
و كذلك آتيناهم من الآيات الدالة على صدق نبيهم ما فيه بلاء لهم، واختبار لإيمانهم، وتمسكهم برسالتهم، ودوام شكرهم لربهم مبين واضح، لننظر كيف يعملون.
ولكنهم عاندوا، وكفروا، وفشلوا فى حمل الأمانة، وأداء الرسالة.

* * *

ثم يعود الكلام إلى كفار هذا العصر
فيقول سبحانه :

{ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ * إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ * فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ }
[الآيات : ٣٤ – ٣٦]

إن هؤلاء الذين كفروا بالقرآن، وأنكروا دعوة محمد صلى الله عليه وسلم ليقولون أيضاً : إن هى إلا موتتنا الأولى فقط، ولا حياة بعدها وما نحن بمنشرين أى : بمعوثين، مرة أخرى بعد الموت.
وإذا أردتم أن نؤمن بالبعث فأتوا لنا الآن بآبائنا الذين ماتوا من قبل إن كنتم صادقين فيما تقولون من قضية البعث والحساب والجزاء ..!!

* * *

ويرد الله عليهم كلامهم الباطل هذا، مهدداً لهم .
حيث يقول :

{ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ }
[الآية : ٣٧]

هؤلاء الكفار هم خير فى العز الدنيوى أم قوم تبع الذين كانوا باليمن والذين من قبلهم من الأمم الأخرى ذات البأس، والعز الذى لا مثيل له!!
طبعاً قوم تبع والذين من قبلهم كانوا أكثر منهم فى متاع الدنيا وعزها.
ومع ذلك لما لم يؤمنوا أهلكناهم.
حيث إنهم لطغيانهم، وعدم إيمانهم كانوا مجرمين.
ألا تخافون يا كفار هذا العصر من أن تكون نهايتكم كنهايتهم ؟

* * *

وبعد هذا الإنذار والتهديد يقيم الله الحجة عليهم.
فيقول :

{ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ }
[الآيتان : ٣٨ ، ٣٩]

أى : لو لم يكن هناك بعث، كما يقول الكافرون لكان خلق هذا الكون عبثاً، ودون غاية .
و لكن ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين بهذا الخلق.

إننا ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون هذا الحق، ولذلك لا يؤمنون، وينكرون البعث والحساب والجزاء.

* * *

وبما أن هناك بعث، وقد ثبت ذلك بوضوح فإن الله عز وجل يكشف عن بعض غوامض هذا اليوم.
فيقول :

{ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ * يَوْمَ لاَ يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئاً وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ * إِلاَّ مَن رَّحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ }
[الآيات : ٤٠ – ٤٢]

إن يوم الفصل بين الخلائق جميعاً مؤمنهم وكافرهم، وهو يوم القيامة ميقاتهم موعدهم أجمعين.
يوم لا يغنى مولى عن مولى شيئاً أى : لا ينفع أحدٌ أحداً، حتى ولا القريب قريبه يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه [عبس : ٣٤ – ٣٧].
ولا هم فى هذا اليوم ينصرون من أحد يدافع عنهم.
إلا من رحم الله فهذا يدافع عن ربنا سبحانه وتعالى برحمته وغفرانه.
إنه عز وجل هو العزيز الرحيم.

* * *

وينقسم الناس فى هذا اليوم إلى فريقين :
فريق العصاة.
وفريق الطائعين.
ويحدثنا رب العزة عن فريق العصاة، وعذابهم ..
فيقول :

{ إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ * طَعَامُ الأَثِيمِ * كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ * كَغَلْيِ الْحَمِيمِ * خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ * ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ * ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ * إِنَّ هَذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ }
[الآيات : ٤٣ – ٥٠]

يا أ لله !! اللهم نجنا من هذا العذاب.

إن شجرة الزقوم التى ينبتها الله فى قاع الجحيم، وهى من أخبث الشجر المر طعام الأثيم الآثم فى قوله وفعله، وهو الكافر تكون حين يجوع ويأكل منها كالمهل عكارة الزيت الذى يغلى فى البطون الكافرة كغلى الحميم الماء الشديد الحرارة.

ويقول تعالى لزبانية الجحيم خذوه فاعتلوه سوقوه بعنف واسحبوه إلى سواء وسط الجحيم.

ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم فينزل فى بدنه، فيسلت ما فى بطنه من أمعائه، حتى تنزل من كعبيه.

أعاذنا الله وإياكم من ذلك.

ثم يقال له تهكماً به ذق هذا العذاب إنك كنت تقول أنت العزيز الحكيم فلست الآن لا بعزيز ولا بكريم.

ذق إن هذا العذاب هو ما كنتم يا فريق الكفار به تمترون تشكون فى حدوثه، وتكفرون به.

* * *

ثم يحدثنا رب العزة عن فريق الطائعين ونعيمهم

فيقول :

{ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ * فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ * كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ * يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ * لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ }

[الآيات : ٥١- ٥٧]

اللهم أنعم علينا بكرمك وغفرانك وجودك يا رب العالمين، واجعلنا من هؤلاء المتقين.

نعم

إن المتقين فى مقام أمين فى الجنة، أمنوا فيه من الخروج منها، أو الموت فيها، كما أمنوا الهموم والغموم بكل أنواعها.

وهم فى جنات وعيون.

وهم يلبسون من حرير سندس وهو الرقيق واستبرق وهو السميك.

وهم يجلسون متقابلين مع بعضهم البعض؛ زيادة فى الأنس.

النعيم كذلك.

وزوجناهم أيضاً بح

ور عين.

وهم يدعون فيها أى : يطلبون فى الجنة بكل فاكهة ومتعة آمنين من انتهائها، أو زوالها.

وهم لا يذوقون فيها الموت بل حياة أبدية، ونعيم أبدى، وليس لهم – بذلك – إلا الموتة الأولى التى خرجوا بها من الدنيا.

و قد وقاهم الله عذاب الجحيم وهذه نعم فى حد ذاتها.

كل ذلك فضلاً من ربك عليهم.

وذلك حقيقة هو الفوز العظيم.

ولمثل هذا فليعمل العاملون [الصافات : ٦١].

ثم تختم السورة بمثل ما بدعت به، وهو الحديث عن القرآن الكريم.

فيقول تعالى :

{ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * فَارْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ }
[الآيتان : ٥٨ ، ٥٩]

أى : فإنما يسرناه أى القرآن لهم بلسانك الذى هو لسانهم؛ لعلهم يتذكرون فيتعظون، فيؤمنون.
وإذا لم يؤمنوا فارتقب انتظر ما ينزل بهم من العذاب إنهم مرتقبون موتك، ليستريحوا منك.
وسيعلمون لمن تكون النصرة، والغلبة فى النهاية !!

* * *

بقلم فضيلة الدكتور عبد الحى الفرماوى
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

الجاثية

بسم الله الرحمن الرحيم

وهى : سورة مكية.
تبدأ بقوله تعالى :

{ حم * تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ }
[الآيتان : ١ ، ٢]

حم من الحروف العربية المقطعة، التى قصد بها القرآن لفت أنظار المشركين، وجذب اهتمامهم، ليستمعوا إليه فتصلهم الرسالة، وتلزمهم الحجة.
تنزيل هذا الكتاب العظيم، وهو القرآن من الله العزيز الذى لا يغالبه أحد الحكيم فى تدبيره، وأقواله، وأفعاله، سبحانه وتعالى.
فهلا آمنوا به، وعملوا بتشريعاته.. ؟!!

* * *

ثم يسوق ربنا عز وجل دلائل .. على عزته، وقدرته، وحكمته، التى لو عرفها، واعتبر بها عاقل : لآمن بالله سبحانه وتعالى
حيث يقول :

{ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ * وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ * وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ }
[الآيات : ٣ — ٥]

يقول تعالى :
إن فى السموات والأرض لآيات تدل على وحدانيته، وعزته، وقدرته، وحكمته.
وفى خلقكم آيات تدل على وحدانيته، وعزته، وقدرته، وحكمته و فى ما يبث بخلق وينشر فى الكون من دابة آيات تدل على : وحدانيته، وعزته، وقدرته، وحكمته.
و فى اختلاف الليل والنهار آيات تدل على : وحدانيته، وعزته، وقدرته، وحكمته.

و فى ما أنزل الله من السماء من رزق مطر فأحيا به الأرض بعد موتها آيات .. تدل على وحدانيته، وعزته، وقدرته، وحكمته.
و فى تصريف الرياح آيات تدل على : وحدانيته، وعزته، وقدرته، وحكمته.
وهذه الآيات : يستفيد بها، ويعتبر بمدلولاتها، الذين يؤمنون و يوقنون ويعقلون.

* * *

يقول المولى :

{ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ }
[الآية : ٦]

تلك آيات الله العظيمة المنظورة فى الأنفس والآفاق، والمسطورة فى القرآن الكريم نتلوها عليك بالحق لتتلوها، وتبلغها للناس.
ما لهم لا يؤمنون بها ؟
فبأى حديث إذاً بعد حديث الله هذا وآيانه يؤمنون ..؟

* * *

{ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئاً اتَّخَذَهَا هُزُواً أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ * مِن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْئاً وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ }
[الآيات : ٧ – ١٠]

ويل هلاك لكل أفاك كذاب أثيم مبالغ فى كذبه.
إنه يسمع آيات الله تتلى عليه ليؤمن بها ثم يصر على كفره مستكبراً لا يؤمن كأن لم يسمعها نهائياً.
فبشره بعذاب أليم فى جهنم يوم القيامة.
و العجيب أنه إذا علم من آيائنا شيئاً بلغه اتخذوها هزواً وسخر منه.
أولئك لهم يوم القيامة عذاب مهين يهينه، لأنه كان مستكبراً.
هؤلاء وأمثالهم من ورائهم أى : قدامهم وفى انتظارهم جهنم يعذبون فيها، لا يخرجون منها، ولا يموتون.
ولا يغنى عنهم ويدفع ويمنع عنهم هذا العذاب.
ما كسبوا فى الدنيا شيئاً من مال، أو جاه، أو .. إلخ.
ولا يغنى عنهم كذلك :
ما اتخذوا فى الدنيا من دون الله أولياء عبدوهم، ودانوا لهم بالطاعة.

و لذلك لهم عذاب عظيم فى شدته، وقسوته عليهم.

* * *

يا أيها الناس جميعاً ..

{ هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ }
[الآية : ١١]

أى : هذا القرآن هدى لكل خير، وكل فلاح، فى الدنيا والآخرة فاتبعوه، وآمنوا به.
و إلا فــ الذين كفروا بآيات ربهم فى الكون وفى القرآن لهم عذاب من رجز أشد أنواع العذاب أليم مؤلم شديد الإيلام.

* * *

وبعد عرض السورة للعديد من آيات الله، الداعية إلى الإيمان..!!
وبعد التهديد الشديد على عدم الإيمان ..!!
تبدأ جولة ثانية فى عرض آيات الله عز وجل ..
حيث يقول سبحانه :

{ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ }
[الآيتان : ١٢ ، ١٣]

هو الله عز وجل الذى سخر لكم البحر بتسخير الهواء، والماء.
لتجرى الفلك فيه بأمره أى : بإذنه، ومشيئته.
و ذلك : لتبتغوا تطلبوا من فضله إما بالسفر للتجارة، أو لمصالح أخرى، أو بالغوص لاستخراج اللؤلؤ والمرجان، أو اللحم الطرى، وهو السمك.
ولعلكم بهذا التسخير تشكرون نعم الله عليكم فتؤمنون.
و هو الله عز وجل، الذى سخر لكم أيضاً ما فى السموات من شمس، وأقمار، ونجوم، وماء .. إلى غير ذلك.
و هو الله عز وجل، الذى سخر لكم كذلك ما فى الأرض من دابة، وشجر، وأنعام.
كل ذلك جميعاً لمنافعكم منه إنعاماً عليكم.
إن فى ذلك كله، وغيره لآيات لقوم يتفكرون فيؤمنون.

* * *

ولما كان هذا التسخير، وهذا التذكير داعياً للإيمان، ثم لم يؤمنوا، وغضب المؤمنون عليهم، وأرادوا قتالهم لهذا الكفر والعناد ..!!
بيد أنهم لقلتهم وضعفهم لا يستطيعون ذلك.
لهذا أمرهم الله بالصبر .. قائلاً :

{ قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْماً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ }
[الآيتان : ١٤ ، ١٥]

وهذه الآيات الكريمة : تدريب على الأخلاق الفاضلة، والأفعال الحميدة.
أى : قل يا محمد للذين آمنوا واتبعوك يغفروا للذين لا يؤمنون، وهم الذين لا يرجعون لا يخافون أيام الله يعنى أيام عذابه لهم فى الدنيا أو فى الآخرة.
وفى هذا : دعوة للمؤمنين على ترك الجدال بغير طائل، ودون فائدة مع المعاندين.
وكان ذلك التوجيه ليجزى الله قوماً من شأنهم التجاوز عن النزاع بلا فائدة، وهم المؤمنون بما كانوا يكسبون من الصبر على الأذى، وكظم الغيظ، والصفح طاعة لله، وترك الجدال.
حيث إنه من عمل صالحاً فلنفسه عمل ومن أساء فعليها أساء.
ثم إلى ربكم ترجعون جميعاً، فيجازى كل واحد بما يستحق.

* * *

ثم يرشد ربنا إلى أمر هام يفيد المؤمنين، والكافرين.
وهو :
أن إنزال الكتب ليس بدعاً.
وأن ما تقابل به هذه الكتب ليس جديداً.
حيث يقول عز من قائل :

{ وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ }
[الآيتان : ١٦ ، ١٧]

يعنى : ولقد آتينا بنى إسرائيل من قبل هذه الأشياء :

الكتاب .. و التوراة.
والحكم .. بين الناس.
والنبوة .. ان أنبياؤهم كثيرين.
ورزقناهم من الطيبات أنواعاً كثيرة.
وفضلناهم على العالمين فى زمانهم.
وآتيناهم بينات أى : معجزات من الأمر أى : أمر الدين.
فما اختلفوا فى أمر الدين إلا من بعد ما جاءهم العلم الذى يقتضى اتفاقهم، ووحدة صفهم، وعدم اختلافهم.
ولكنهم ما اختلفوا هذا الاختلاف، الذى وقع بينهم إلا بغياً وحسداً، وعداوة بينهم.
فهل يتركهم الله بلا حساب، ولا عقاب ..؟
أبداً ..
إن ربك عز وجل يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون وهؤلاء – أى : كفار هذه الأمة – كذلك.

* * *

ولما كان إعراض بنى إسرائيل عن اتباع الحق بسبب البغى والحسد.
وكفار هذه الأمة كذلك.
بين الله لحبيبه وللمؤمنين معه طريق الصواب.
فقال :

{ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ * إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ * هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ }
[الآيات : ١٨ – ٢٠]

ثم أى : بعد اختلاف أهل الكتاب جعلناك يا محمد على شريعة طريقة، ومنهج من الأمر أى : من الدين.
فاتبعها أنت ومن معك، وتمسك بها، وأعلنها للدنيا كلها، وادع الناس إليها.
ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون الحق، ولا تؤمنون به، وكل ما عندهم أهواء وبدع من عند أنفسهم أو شياطينهم.
حيث إنهم لن يغنوا لن يدفعوا عنك من عذاب الله شيئاً ينزل بك، إذا اتبعتهم.
ولا تواليهم، ولا تتودد إليهم فإنهم ظالمون.
وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض ومن يوالهم يكون منهم.
والله سبحانه ولى المتقين فكن ومن معك تقياً ليكون الله وليك وناصرك.
هذا الكتاب الذى أنزلناه إليك، وهو القرآن
بصائر للناس تريهم حقائق الأشياء، وصوابها.
وهدى لهم من الضلال.
ورحمة لهم من العذاب.
كل ذلك لقوم يوقنون منهم أنه الحق، فيتبعونه، ويعملون به لينير بصائرهم، ويهديهم، ويكون رحمة لهم.

* * *

وإذا كان الظالمون بعضهم أولياء بعض، والمتقون وليهم المولى سبحانه وتعالى.
فلا مساواة إذن بين الفريقين.

{ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ * وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ }
[الآيتان : ٢١ ، ٢٢]

أى : أحسب وظن الذين اجترحوا مارسوا السيئات الكفر والمعاصى أن نجعلهم فى المنزلة عندنا، وفى الثواب منا كالذين آمنوا وعملوا الصالحات مرضاة لنا سواءً أى مستوين ومتماثلين فى محياهم ومماتهم كلا وألف كلا ..
ساء ما يحكمون ما يظنون من هذه التسوية بين الفريقين.
لو كان الأمر كذلك لكان كل شئ عبثاً.
و لكن خلق الله السموات والأرض بالحق وبالتالى فليس فى الكون عبث، ولا يستوى الفجار مع الأبرار أبداً.
ولتجزى كل نفس خلقها الله بما كسبت من خير أو شر.
وهم جميعاً لا يظلمون.

* * *

وبهذا ظهر جيداً أن أهل الهوى لا يستوون مع أهل الهدى.
ويبين ربنا تبارك وتعالى أن أهل الهوى الذين اختاروه ومن كان هذا شأنهم لا يهتدون.
حيث قال :

{ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ * وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ * وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ }
[الآيات : ٢٣ — ٢٥]

أفرأيت أى : أخبرنى عن الذى اتخذ جعل إلهه هواه يتبع ما يدعوه إليه، وكأنه يعبده ..!!
و قد أضله الله عن الهدى على علم منه ومعرفة بهذا الهدى ..!!
و لذلك ختم الله على سمعه فلا يسمع وعظاً وقلبه فلا يعقل خيراً وجعل على بصره غشاوة فلا يبصر حسناً.
أيهتدى هذا ..؟
أبداً .. أبداً.
فمن يهديه من بعد إضلال الله إياه ..؟
لا أحد أبداً يهديه.
أفلا تذكرون فتتعظون، فتستقيمون، فتؤمنون ..!!

وقالوا أى : هؤلاء الذين جعلوا إلههم هواهم .
ما هى إلا حياتنا الدنيا التى نحن فيها نموت ونحيا يعنى : نموت نحن، ويحيا أولادنا، وهكذا.
و قالوا أيضاً ما يهلكنا ويميتنا إلا الدهر فليس هناك للموت، بل كل شئ من فعل الدهر والزمان.
والحقيقة أنهم مالهم بذلك الذى قالوه من علم.
ولكنه منهم ظن وتخمين يخالف الحق والواقع.
حقاً إن هم إلا يظنون.
و كذلك إذا تتلى عليهم آياتنا الدالة على وحدانيتنا، وقدرتنا، وحكمتنا، والدالة على البعث بينات واضحات : ما كان حجتهم التى يعارضون بها هذه الآيات، إلا أن قالوا هروباً من الإيمان ائتوا بآبائنا أحياء مرة أخرى إن كنتم صادقين فى موضوع البعث.

* * *

يقول المولى عز وجل ..
رُدّ عليهم يا محمد :

{ قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ }
[الآية : ٢٦]

قل لهم الله هو الذى يحييكم ثم هو الذى يميتكم ثم هو سبحانه القادر على أن يجمعكم بعد بعثكم أحياء إلى يوم القيامة الذى لا ريب فيه ليحاسبكم، ويجازيكم.
ولكن أكثر الناس لا يعلمون أن القادر على الإحياء والإماتة قادر على البعث والإعادة.

* * *

قل لهم أيضاً ..

{ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ }
[الآية : ٢٧]

و قل لهم لله ملك السموات والأرض يفعل ما يشاء، بقدرته وحكمته.
ويوم تقوم الساعة وتبعثون يومئذ يخسر المبطلون المنكرون كل شئ، حيث يصيرون إلى النار.

* * *

الله عليهم إنكارهم للبعث بدأ فى ذكر تفاصيل لبعض أحوال يوم القيامة.
فقال :

{ وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ * وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ * وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لاَ رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلاَّ ظَنّاً وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ }
[الآيات : ٢٨ – ٣٢]

وترى يوم القيامة كل أمة أى : أهل دين جاثية جالسة على الركب من هول ما ترى كل أمة منهم تدعى إلى كتابها أى : كتاب أعمالها؛ فيجتمعون عليه، ويسمعون.
فيقال لهم ثلاث جمل :
الأولى : اليوم تجزون ما كنتم تعملون فى الدنيا، على الخير خيراً، وعلى الشر شراً.
الثانية : هذا كتابنا الذى كتبته الملائكة، وهى تسجل عليكم أقوالكم وأفعالكم بأمرنا ينطق ويشهد عليكم بالحق من غير زيادة، ولا نقصان، ولا تغيير، ولا تبديل.
الثالثة : لا تتعجبوا إنا كنا نستنتخ ما كنتم تعملون ونثبته، فى هذا الكتاب الذى لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها [الكهف : ٤٩].
وبهذا يتميز الصالحون من الفاسدين.
فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم فى رحمته.
وهنيئاً لهم ذلك هو الفوز المبين.
وأما الذين كفروا فيقال لهم :
أفلم تكن آياتى الداعية إلى الإيمان تتلى عليكم فى الدنيا ..؟
فاستكبرتم عن الإيمان وكنتم قوماً مجرمين لعدولكم عن الحق إلى الباطل.
أيضاً ..
و كنتم إذا قيل لكم إن وعد الله بالبعث والجزاء حق لا شك فيه والساعة حق لا ريب فيها.
قلتم منكرين مستهزئين ما ندرى ما الساعة وما نعتقد فى وقوعها.
إن نظن فيها إلا ظناً لا يؤكد حقيقة وما نحن بمستيقنين من وقوعها.

* * *

يقول سبحانه وتعالى :

{ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ * ذَلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُواً وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لاَ يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ * فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }
[الآيات : ٣٣ – ٣٦]

و هذا جزاء الذين كفروا واستكبروا وكانوا مجرمين.
نعم بدا وظهر لهم عقوبات سيئات ما عملوا.
و ليس هذا فقط بل حاق ونزل بهم العذاب جزاء ما كانوا به يستهزؤن فى الدنيا.
وقيل لهم وهم فى شدة الكرب اليوم ننساكم ونترككم فى العذاب كما نسيتم وأنكرتم لقاء يومكم هذا فلم تعملوا له.
و لذلك مأواكم ومسكنكم النار تقيمون فيها أبداً.
وما لكم من ناصرين يمنعون عنكم العذاب.
ذلكم العذاب ..!!
بأنكم بسبب أنكم اتخذتم آيات الله هزواً فلم تنتفعوا بها.
وغرتكم كذلك الحياة الدنيا ببهجتها فاطمأننتم إليها.
فاليوم يدخلون جهنم، خالدين فيها لا يخرجون منها ولا هم يستعتبون.
ولا يطلب منهم العتبى، ومرضاة ربهم؛ حيث فات أوان ذلك، الذى كان مطلوباً منهم فى الدنيا، فلم يفعلوه.

* * *

ختاماً ..يقول العزيز الحكيم :

{ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ }
[الآيه : ٣٧]

يعنى : فاحمدوه إذّ هو سبحانه خالق السموات والأرض، فهو ربهما ورب العالمين جميعاً.
وله عز وجل الكبرياء، والعظمة فى السموات والأرض لا لغيره.
وهو سبحانه وتعالى العزيز فى انتقامه من الأعداء الحكيم فى أ قواله، وأفعاله، وأحكامه، وشرعه، وقدره.
أى : فاحمدوه، فهو صاحب الحمد.
وكبروه فهو صاحب العظمة والمجد والسلطان.
سبحانه جل شأنه هو العزيز الحكيم.

* * *

بقلم فضيلة الدكتور عبد الحى الفرماوى
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

الأحقاف

بسم الله الرحمن الرحيم

وهي : سورة مكية
وتبدأ : بقول الله عز وجل :

{ حـم * تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ }
[الآيتان ١ ، ٢]

حم من الحروف العربية قصد بها القران الكريم لفت أنظار المشركين وجذب اهتمامهم ليستمعوا إليه .. فتصلهم الرسالة وتلزمهم الحجة .
تنزيل هذا الكتاب العظيم وهو القرآن من الله سبحانه وتعالى العزيز الذي لا يغالبه أحد الحكيم في تدبيره وأقواله وأفعاله وتشريعاته .
فهلَّا ‥ آمنوا به وعملوا بما فيه ؟ !

***

ثم يسوق ربنا عز وجل ما يدل علي عزته وحكمته ، ما لو عرفه واعتبر به عاقل : لآمن بالله سبحانه وتعالى .
حيث يقول :

{ مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ }
[الآية ٣]

أي : ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما على هذا الابداع إلاخلقا بالحق وبغاية عظيمة وليس عبثا .
وأيضا : لـــ أجل مسمى وهو فناء الدنيا وبعث الخلائق .
وبهذا : أصبح واضحا .. أن هناك إلها لهذا الكون عزيزا حكيما ، عادلا رحيما ، وأن هناك كذلك بعثا للعباد .
ومع هذا الوضوح : نجد أن الذين كفروا عما أنذروابه وخوفوا منه ، وهو العذاب بسبب كفرهم وطغيانهم معرضون لا يؤمنون .

***

ومع هذا الإعراض ..
يأمر ربنا تبارك وتعالى رسوله بمناقشتهم في أسباب إعراضهم ، وإبطال مزاعمهم الفاسدة ..
إذ يقول له :

{ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ }
[الآية ٤]

قل يا محمد لهؤلاء المعرضين أرأيتم يعني : أخبروني .. ما هذه الأصنام
التي تدعونيعني : تعبدون من دون الله .. ؟
إنها : لا شيء ..!!
وإلا أروني وأرشدوني ..
ماذا خلقوا من الأرض إن كانوا آلهة ..؟
أم لهم شركأي: مشاركة مع الله في خلق السموات ؟
إنه : لا هذا ، ولا ذاك .. !!
وعلى هذا ..
كيف تعبدونهم ، وهم ليسوا بالهة ..!! ؟
بل من الذي جعلهم لكم آلهة .. ؟
ائتوني بكتاب أنزله الله من قبل هذا القرآن، يشهد لكم بصحة عبادتكم لهم .
أوائتوني .. بأي أثارة من علمولو كان أبسط شيء يدل علي صحة عبادتكم لهم.
وذلك : إن كنتم صادقين في أنهم آلهة ..!!

***

وهكذا .. أبطل القرآن دعواهم .
ثم حدثهم عن حجم آلهتهم هذه ..
فقال :

{ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ}
[الآيتان ٥ ، ٦]

حقا .. إنه : لا أضل ممن يدعوا ويعبد من دون الله ..!!

وهي : هذه الأصنام .
ثم وصف الله معبوداتهم هذه بأربعة أوصاف ، كلها تجلب الحسرة لهم يوم القيامة ، وتدعوهم إلى مراجعة أنفسهم في الدنيا .
الوصف الأول : أنها لا تستجيب له أي ، لعابدها إن دعاها ، ومهما دعاها ، أو طلب منها إلى يوم القيامة لأنها لا تملك نفعا ولا ضرا .
الوصف الثاني : أنها تكون عن دعائهم لها غافلين أي : غافلة ، لانها لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل .
الوصف الثالث : أنه إذا حشر الناسالذي كانوا يعبدونهم في يوم البعث كانوا أي : صاروا لهم أعداء.
الوصف الرابع : أنهم في يوم القيامة كانوا بعبادتهم كافرين أي : يقولون .. والله ما دعوناهم الي عبادتنا .
خبروني بربكم .. من أضل من هذا الذي يعبد آلهة هذه صفاتها ، وهذه قدراتها.. ؟
إنه بالطبع .. لا أضل منه ..!!

***

وبعد ان تبين ضلالهم في قضية التوحيد : يبين سبحانه – أيضا – ضلالهم في موضوع النبوة ، الذي كان سببا في ضلالهم كله .
فيقول :

{ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ }
[الآية ٧]

وكانوا إذا تتلى عليهم آياتنا من القرآن بيناتواضحات ، لا غموض فيها ، ولا إبهام .. !!
قال الذين كفروا كبرا وعنادا للحقوهو القرآن لما جاءهم به محمد ، وتلاه عليهم هذا سحر مبين واضح أنه سحر .

***

ولم يكتفوا بأن وصفوا القرآن هكذا .. بأنه سحر .
بل زادوا على ذلك كفرا وعنادا .
يقول سبحانه :

{ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلاَ تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ }
[الآية ٨]

يعني : بل يقولون أيضا .. إنه افتراه واختلقه من عند نفسه ، وبهذا ..
فليس القرآن من عند الله ، و ليس محمد بنبي كما يقول .
ويأمره الله عز وجل بالرد عليهم ..
فيقول له أولا :
قل لهم إن افتريتهمن نفسي : فقد كذبت على الله ، ولعاقبني أشد العقاب .
وساعتها فلا تملكون لي أنتم ولا غيركم من الله شيئا يمكنكم من الدفاع به عني .. فكيف أفتريه .. ؟
على أية حال .
هوسبحانه أعلم بما تفيضون فيه من الطعن في : و احدانية الله ، و إنكار الوحى ، وعدم الاعتراف بنبوتي .
لذلك ..
كفى به سبحانه شهيدا بيني وبينكم يشهد لي بصدق البلاغ ، ويشهد عليكم بالتكذيب والعناد .
ومع كل هذا : هوسبحانهالغفورلمن تاب وآمن الرحيمبعباده المؤمنين .
فآمنوا .. كنتم عقلاء ، وأردتم غفرانه ، ورحمته .. !!

***

ثم يقول له ثانيا .. معرض الرد عليهم :

{ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعاً مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ }
[الآية ٩]

أي قل لهم .. لم تنكرون نبوتي .. فأنا ما كنت بدعا من الرسل أى :
لست بأول رسول من الله ، فقبلي كانت رسل كثيرون .
وثانيا : لا أعلم الغيب ، و لا أدعي ذلك .
و على هذا :ما أدري ما يفعل بي ولا بكم في الدنيا..؟
ثالثا : ما جئت بدعوتكم إلى الايمان بالله الواحد من عند نفسي إن أتبع إلا ما يوحى إلى من ربي عز وجل
رابعا : وما أنا بالنسبة لكم إلا نذير مبينأمري ظاهر ، ودعوتي واضحة .
فامنوا .. إن كنتم عقلاء ، وأردتم غفران الله ، ورحمته .. !!

***

ثم يقول ربنا للنبي صلى الله عليه وسلم ثالثا .. في معرض الرد علي هؤلاء

المعرضين المعاندين .

{ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ }
[الآية ١٠]

قل لهم يا محمد : أخبروني إن كان هذا القران من عند الله حقا وقد كفرتم به كما تفعلون الان .. !!
و في الوقت ذاته شهد شاهد من بني إسرائيل الذين تسألونهم ، وتثقون في إجاباتهم على مثله أي عليه فآمن هو أنه من عند الله واستكبرتم أنتم ، وبقيتم على كفركم .
أخبروني : من أضل منكم. ؟
إنه لا أحد .
بل : من أظلم منكم .. ؟
إنه لا أحد.
ولذلك : لا تسحتقون الهداية ؛ حيث إن الله لا يهدي القوم الظالمين.

***

ومع هذا الإعراض عن القرآن ، أيها الأحبة في الله .. !!
ومع هذا العناد من الكفار عن الإيمان .. !!
كان الناس .. يدخلون في دين الله ، ويوحدون ربهم ، ويتبعون محمد اً صلى الله عليه وسلم ..
أتدرون .. ماذا كان موقف هؤلاء الكفار ، من هذه الظاهرة .. ؟
يقول تعالي :

{ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْراً مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ }
[الآية ١١]

وقال الذين كفروا للذين آمنوا أي : قالوا في حقهم ، تنقيصا لهم لو كان هذا القرآن خيرا لآمنا به ، واتبعناه قبلهم ، و ما سبقونا هم إليه.
ولكنه : ليس حقا ، ولا خيرا .
ولهذا : لم نؤمن به ، ولم نتبع محمدا .
والسبب في موقفهم هذا : أنهم لم يهتدوا إلى ما فيه .
وإذ لم يهتدوا به ويعرفوا عظمته : فسيقولونبالطبع هذا إفك كذب قديم نقله بنفسه ، و افتراه من الكتب القديمة السابقة .

***

ويرد الله عز وجل عليهم .. بقوله .

{ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَاماً وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَاناً عَرَبِياً لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ }
[الآية ١٢]

أي : و القديم الذي كان من قبله هو كتاب موسى وهو التوارة ،الذي كان إمامافي دين الله وشرعه ورحمةلمن آمن به .
والقران : ليس كذبا ، ولا افتراءً من محمد .
بل .. هو كتاب من عند الله.
ثم يصفه ربنا بهذه الصفات :
الأولى : أنه مصدق لما سبقه من الكتب المنزلة من الله .
الثانية : أنه جاء لسانا عربياأي باللسان العربي ؛ ليفهموا بلاغته وفصاحته ، فيعرفوا أنه من عند الله ،وليس من صنع بشر.
الثالثة : أنه جاء لينذرويخوف الذين ظلموامن عذاب الله.
الرابعة : أنه جاء بشرى للمحسنين المؤمنين المطيعين.
هذا.. هو القرآن .
حقا .. إنه من عند الله ، وليس إفكا كما يقولون كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا [الكهف ٥]

***

وبعد أن تقررت أدلة التوحيد ، وأدلة النبوة..!!
وبعد أن تم الرد على شبهات المشركين .. !!
وبعد أن ظهر أن القران الكريم : بشرى للمحسنين..!!
يكون حديث القرآن عن هؤلاء المحسنين.
فيقول تعالى :

{ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ * أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ }
[الآيتان ١٣ ، ١٤]

إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا على التوحيد ، وطاعة الله ، والتوبة إليه من الذنوب والمعاصي ، وأخلصوا العمل له سبحانه .
هؤلاء : هم المحسنون .
ولذلك : فلا خوف عليهم من أي مكروه يلحق بهم في الآخرة ولا هم يحزنون على فوات محبوب في الدنيا .

حقا أولئك أصحاب الجنةمالكوها ، والمقيمون فيها ،
خالدون فيها لا خروج منها ، ولا موت بها
وذلك جزاء لهم بما كانوا يعملون مما وفقهم الله إليه من العمل الصالح ٠

***

ولما ذكر الله تعالى جزاء الاحسان : أتبعه ببيان أعظم أنواعه ، وهو الاحسان إلى الوالدين .
فقال :

{ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ }
[الآية ١٥]

ووصينا الإنسان بوالديه أن يحسن إليهما إحسانا عظيما .
ثم خص الأم : بمزيد هذا الإحسان .
وذلك : بسبب أنه قد حملته أمه كرها أي : بمشقة ووضعته كرها.
و كان حمله هذا وفصاله بعد الرضاع ثلاثون شهرا كلها تعب ومشقة ٠
حتى إذا بلغ هذا الإنسان أشده وهو : كمال قوته ، وعقله ، وبلغ من العمر أربعين سنة .
طلب من ربه .. و قال :
أولا : رب أوزعني ألهمني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي بها، وهي : الإسلام.
ثانيا : رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت بها علي والديوهي : الإسلام.
ثالثا : و أعني على ان أعمل عملا صالحا ترضاه يسعد به العباد ، تصلح به البلاد .
رابعا : وأصلح لي في ذريتي أي : أجعلها موضعا للصلاح والاستقامة٠ خامسا : إني تبت إليك فاقبل توبتي ، واغفر ذنوبي..
سادسا : وإني من المسلمين المنقادين لك ، المستسلمين لقضائك ، العاملين بشريعتك .. فثبتني على ذلك .

***

حقا .

{ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ }
[الآية ١٦]

أولئك المحسنون ، الموصوفون بما ذكر :
هم الذين نتقبل عنهم أي : منهم أحسن ما عملوا ونرضى به، ونثيبهم عليه.
وهم الذين نتجاوز عن سيئاتهم ونغفر لهم.
وهم الذين نجعلهم فى زمرة أصحاب الجنة الذين يرثونها .
و كان هذا الجزاء : وعد الصدق الذي كانوا يوعدون به في الدنيا ، عن طريق الكتب من الله ، على ألسنة الرسل .

***

ولما ذكر الله حال : المحسنين ، الداعين للوالدين .. !!
ذكر عقيبة حال : المسيئين ، العاقين للوالدين ..
فقال :

{ وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ}
[الآية ١٧]

وأما الذيفجر ، وقال لوالديه أف لكما متضجرا ،أتعدانني أن أخرج من القبر ، و أبعث ..!!
خاصة وقد خلت أي : مضت القرون من قبلي ولم يبعث منهم أحد.
وهما أي : والديه يستغيثان الله أن يعيده إلى الصواب ، وأن يرزقه الإيمان والعمل الصالح .
ويقولان له : ويلك هلكت بكفرك هذا .
آمن بوحدانية الله ، وبالبعث، وبالحساب، وبالجزاء إن وعد اللهبالبعثحق.
فيقول مجيبا لهما :ما هذا الكلام إلا أساطير الإولين فهو كذب ، لا صدق فيه ، ولا حدوث له .

***

حقا .. هذا ما يقول عنه المولى وعن أمثاله ...

{ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ * وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ }

[الآيتان ١٨ ، ١٩]

أي : أولئك الفاجرون ، المسيئون : هم الذين حق عليهم القول بالعذاب لأملان جهنم من الجنة والناس أجمعين [السجدة ١٣].
وذلك في أمم أي : ضمن أمم قد خلت من قبلهم وكفرت بالله ، وانكرت البعث مثلهم من الجن والإنس.
حقا .. إنهم كانوا خاسرين يوم القيامة ..!!
هذا ...
ولكل فريق منهم درجات في العذاب مما عملوا .
وليوفيهم ربك أعمالهم بما يناسبها جزاءً وهم لا يعملون.

***

ولما بين المولى أنه يوصل حق كل أحد إليه : بين بعض أحوال العصاة .
فقال :

{ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ }
[الآية ٢٠]

ويوم القيامة يعرض الذين كفروا على النار: فيفزعون .
ويعذبون فيها : فيتألمون ، ويندمون ، ويتمنون ..!!
فيقال لهم :أذهبتم طيباتكم التي مَنَّ الله بها عليكم ،واستمتعتم بها في الدنيا، دون أن تؤمنوا بصاحب هذه النعم .
فاليوم تجزون عذاب الهون أي : الهوان وهو الذل .
وذلك :
بما كنتم تستكبرون في الأرض وتبغون بغير الحق .
و كذلك بما كنتم تفسقون بالكفر والمعاصي .

*** ولما قدم الله عز وجل لكفار مكة دلائل التوحيد والنبوة : ولم يؤمنوا وشغلوا بالشهوات والملذات .. !!
بين الله لهم عاقبة ذلك .. بضرب المثل ، وتوضيح المصير ، بمن سبقهم من الأمم القريبة منهم ..
فقال للنبي صلى الله عليه وسلم .

{ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ }
[الآية ٢١]

واذكر لهم يامحمد .. هودا عليه السلام أخا عاد الأقوياء ،الأشداء إذ أنذر قومهالذين كانوا بالأحقاف قريبا منكم بجنوب الجزيرة العربية ،وخوفهم
بعذاب الله ، ودعاهم الى الايمان .
و لم يكن وحده في ذلك ، حيث قد خلت سبقت النذر أمثاله لأقوامهم
أمثالكم من بين يديه ومن خلفه من قبله ومن بعده ..!!
وقال لهم ، كما يقول لكم محمد :ألا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم
عظيم إن لم تؤمنوا .

***

فماذا قالوا له .. ؟

{ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ }
[الآية ٢٢]

قال١وا له :أجتنا بهذه الدعوة لتأفكنا أي : تصرفنا عن عبادة آلهتنا
التي نعبدها .. !! ؟
لن نؤمن لك ، ولن نخاف تهديدك .
فأتنا بما تعدنا به من العذاب إن كنت من الصادقين فيما تقول ، ونخن علي ثقة أنك غير صادق ٠

***

فكان جوابه عليهم ..

{ قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ }
[الآية ٢٣]

أي : قال لهم إنما العلم بوقت نزول ما أعدكم و أخوفكم به من العذاب عند
الله.
وما دَوْري : إلا أن أبلغكم فقط ما أرسلت به إليكمن الدعوة إلى الإيمان
بالله ، والتخويف بهذا العذاب ، إذا بقيتم على كفركم وعنادكم .

ولكني مع ذلك أراكم قوما تجهلون وظيفة الرسل ، ولا تفهمون ضرر عنادكم ، واستعجالكم هذا العذاب .

***

وأصروا علي الكفر والعناد .
وجاء العذاب .. إذ أرسل الله عليهم الريح .
ولم يعرفوا أنها العذاب.

{ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لا يُرَى إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ }
[الآيتان ٢٤ ، ٢٥]

فلما رأوه أي : الريح يحمل سحابا عارضا في أفق السماء ،مستقبل أوديتهم يسير في جهتها !!
فرحوا وقالوالبعضهم البعض هذا عارض سحاب ممطرناوسينبت زرعنا ، ويكثر خيرنا .
ورأى هود عليه السلام ما رأوا ..
فرد عليهم .. وقال لهم :
لا .. ليس هذا ريح يحمل السحاب ليمطركم .
بل هو ما استعجلتم به من العذاب .
وهو في الحقيقة : ريح فيها عذاب أليم لكم .
نعم . ريح تدمر كل شئ في طريقها بأمر ربها .
وقد كان .. !!
ودمرت الريح كل شئ بأمر ربها .
فأصبحوا هلكى كلهم ، رجالا ونساءً وأطفالا ، وأموالالا يرى إلا مساكنهم.
ولم ينج من هذا العذاب : إلا هود عليه السلام ، ومن آمن معه .
يقول تعالى مهددا كفار مكة ، وكفار الدنيا كلها .
كذلك الجزاء الذي وقع بعاد قوم هود نجزي القوم المجرمينأينما كانوا ، ومهما كانوا .

***

وفي لهجة التحذير : يواصل ربنا الكلام مع الكفار ..
قائلا :

{ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصَاراً وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ }
[الآية ٢٦]

ولقد مكانهم في الأرض ، و أعطيناهم من كنوزها وخيراتها الكثير،فيما إن مكناكم فيه يا أهل مكة ، وأعطيناكم كما أعطيناهم ؛ لطغيتم أكثر وأكثر .
وجعلنا لهم كذلك ، كما جعلنا لكم سمعا وأبصارا وأفئدةيستفيدون بها في معرفة آيات الله ، ويؤمنوا .. !!
فما أغنى عنهم أي : ما أفادهم ، ولا أفادوا من سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء أبدا ، ولو كان قليلا .
إذ كانوا مثلكم يجحدون بآيات الله ولا يؤمنون .
و لذلك :حاق نزل بهم من العذاب ما كانوا به يستهزؤن .. !!
فاحذروا ، وآمنوا ، ولا تستهزؤا .

***

ثم يقول لهم ربنا عز وجل .. أيضا :

{ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَاناً آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ }
[الآيتان ٢٧، ٢٨]

ولقد أهلكنا أيضا ما حولكم من القرى يا كفار مكة .
وذلك : لكفرهم ، وعنادهم .
و كنا قد صرفنا كررنا ونوعنا لهم الآيات والدلائل ، على وحدانيتنا وقدرتنا لعلهم يرجعون عن عنادهم وكفرهم .
ولكنهم لم يؤمنوا .
فأهلكناهم.
فلولا فهلا نصرهمومنع عنهم هذا العذاب الذين اتخذوهم من دون الله وهي الأصنام ، التي كانوا يعبدونها ، فيما يزعمون قربانا تقربهم من الله ، و يجعلونها آلهة .. !!
أبدا .. لم يحدث ، ولم تنصرهم .
بل ضلوا وغابوا عنهم في وقت الشدة ، وهو وقت إهلاك الله لهم .
وذلك العذاب : نتيجة إفكهم كذبهم في اتخاذ الالهة ،وما كانوا يفترون على الله وعلى الرسل .

***

هذا .
وبعد أن بين ربنا تبارك وتعالى أن في الإنس من آمن وله ثوابه ، ومن كفر .. وعليه عقابه .. !!

يبين أيضا : أن الجن فيهم ، من آمن .. وهو معرض للثواب ، وفيهم من كفر .. وهو معرض للعقاب .
فقال :

{ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ }
[الآية ٢٩]

و اذكر لهم ليعتبروا إذ صرفناوجهنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن منك ، حينما تتلوه .
فلما حضروه واستمعوا إليه قالوا لبعضهم البعض أنصتوا ، لنسمع جيدا ، ونفهم جيدا .
واستمَعوا ، وفهموا .
فلما قضى وفرغ النبي صلى الله عليه وسلم من التلاوة :ولوا عادوا إلى قومهم من الجن منذرينلهم .

***

أتدرون – أيها الأحبة في الله – ماذا قالوا لقومهم .. ؟

{ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ }
[الآية ٣٠]

قالوا أي هذا النفر ، الذين استمعوا إلى القرآن لقومهم :
يا قومنا إنا سمعنا أي : استمعنا إلى ..
ثم وصفوا لقومهم هذا الذي استمعوا إليه بهذه الأوصاف :
الأول : كتابا يماثل الكتب الألوهية ، وهو القرآن .
الثاني : أنزل أي: أنه ليس من صنع البشر ، بل هو منزل من الله تعالى رب البشر .
الثالث : من بعد موسى أي : من بعد الكتاب الذي نزل على موسى.
الرابع : مصدقا لما بين يديه لما سبقه من الكتب ؛ حيث يدعوا إلى التوحيد ، والنبوة ، و الإيمان باليوم الأخر ، ومكارم الأخلاق ، كما كانت تدعو هي أيضا .
الخامس : يهدي إلى الحق وهو إسلام الوجه لله .
السادس : و ويهدي إلى صراط مستقيم في الأقوال والأفعال .

***

وبعد أن وصفه لهم هذا الوصف .. قال :

{ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ }
[الآية ٣١]

نعم .. ما دام الذي استمعوا إليه بهذا الوصف : إذاً يجب إتباعه .
ولذلك .. قال لهم .
يا قومنا أجيبوا داعي الله إلى الإيمان ، وهو محمد صلى الله عليه وسلم
وآمنوا به وبما جاء به .
ولو فعلتم ذلك : كانت النتيجة خيرا .
حيث يغفر الله لكم من ذنوبكم.
و كذلك يجركم وينقذكم من عذاب أليم في يوم القيامة .

***

وبعد أن شوقهم إلى هذه النتائج الطيبة إذا آمنوا ..
حذرهم من النتائج السيئة إذا لم يؤمنوا .
حيث قال لهم :

{ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَولِيَاءُ أُوْلَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ }
[الآية ٣٢]

يعني : ومن لا يجب داعي الله منكم ويصر على الكفر ..!!
فليس بمعجزأي : هارب ، وناج ، من عذاب الله ، بالاختفاء في أي مكان في الأرض على سعتها .
و كذلك ليس له من دون الله أولياء يدافعون عنه ، أو يمنعون نزول العذاب به.
حقا .. أولئك الذين لا يؤمنون بهفي ضلال مبين وضياع كبير .

***

ثم يقيم ربنا الدلائل على قدرته سبحانه على ما خوف الجني به قومه ،وعلى ما خوف به سبحانه كفار مكة ..
حيث يقول :

{ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }
[الآية ٣٣]

نعم ..
أ غفلوا ولم يرواأى كفار الإنس والجن أن الله عز وجل الذي خلق السموات والأرض على هذا النحو البديع ولم يعيى بخلقهن ولم يعجز عن خلقهن ..!!
أغفلوا عن أنه سبحانه كما قدر على ذلك بقادر أن يحيي الموتى .. ؟
الجواب ..
بلى إنه قادر على بعث الموتى .
وهو عز وجل كذلك على كل شئ قدير.

***

ثم يقول سبحانه واعظا لهم .

{ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ }
[الآية ٣٤]

ويوم يعرض الذين كفروا على النار فيفزعون ، ويعذبون فيها .. فيتألمون.
ويقال لهم تقريعا وتوبيخا على استهزائهم الذي كانوا يقابلون به وعد الله ووعيده لهم وهم في الدنيا :أليس هذا العذاب بالحق هو الحق الذي كنتم به تكذبون ..؟!!
ولا يملكون حينذاك إلا الاعتراف ..
قالوا بلى ربنا : إنه هو الحق .
فيقال لهم : إذن فذقوا العذاب بما كنتم تكفرون خالدين فيه مخلدون .

***

وبعد هذه الجولات العنيفة مع الكفار ، و الحوارات الطويلة في إقناعهم بالإيمان .. ثم إصرارهم على ما هم عليه.
يكون الأمر الأخير للنبي صلى الله عليه وسلم : بالصبر .
إذ يقول سبحانه له .

{ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلاَ تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلاَغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ }

[الآية ٣٥]

أي : فاصبر يا محمد .. على عنادهم معك ، وأذيتهم لك كما صبر من قبلك على مثل ذلك أولوا العزم أصحاب الصبر على الشدائد ، والثبات في الأزمات من الرسل إخوانك ، الذين أرسلناهم من قبلك .

و كذلك اصبر ولا تستعجل لهم العذاب .

فهو آت لا محالة ، ونازل بهم بالضرورة .

كأنهم يوم يرون ما يوعدون من العذاب في الآخرة لم يلبثوا ويقيموا في الدنيا إلا ساعة من نهار فقط .

هذا .. بلاغ وفيه الكفاية لمن أراد أن يتعظ ، وأن يهتدي .

وأما من لا يتعظ ولا يهتدي : فمصيره الهلاك .

فهل يهلك إلا القوم الفاسقون الخارجون عن طاعة الله ..؟

أبدا ..

وحاشا لله أن يكون غير ذلك ..!!

فهو سبحانه وتعالى الحكيم العادل .

***

بقلم فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

الحجرات

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه السورة: مدنية
وهي: تبدأ بقوله تبارك وتعالى

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ }
[الآية : ١]

هذا هو النداء الأول في السورة الكريمة، من نداءات خمسة تضع مناهج وأسس بما فيها من أمر أو نهي لعالم نظيف شريف عفيف، يقوم عليها، وينتسب إلى الله بها؛ ليقود الدنيا وأهلها إلى الخير والصراط المستقيم.
والآية تنهي نهياً جازماً عن التقدم على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم بشيء آخر وعن الإقدام على أمر من الأمور دون معرفة هدى الله سبحانه وتعالى، وهدى رسوله صلى الله عليه وسلم فيه.
واتقوا الله فيما تفعلون، وفيما تتركون.
حيث إن الله سميع لما تقولون عليم بما تفعلون، ويجازيكم على الخير بمثله وعلى الشر بما تستحقون.

* * *

ولما نهى ربنا عز وجل عن الفعل الذي يجعل للإنسان مدخلاً في شرع الله ورسوله أتبع ذلك بالنهي عن القول أيضاً فقال:

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلاَ تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ }
[الآية : ٢]

وهذا: هو النداء الثاني للمؤمنين ينهاهم ربنا تبارك وتعالى بقوله لا ترفعوا أصواتكم إذا نطقتم فوق صوت النبي صلى الله عليه وسلم؛ احتراماً له، وإجلالاً لشأنه وتعظيماً لشرعه وسنته.
وذلك في حياته صلى الله عليه وسلم.
وأيضاً: بعد مماته عليه الصلاة والسلام؛ حيث يكره رفع الصوت عند قبره، كما كان يكره في حياته.
ثم يقول المولى ولا تجهروا له بالقول إذا ناجيتموه، وتحدثتم معه كجهر بعضكم لبعض في أحاديثكم.
كل ذلك: مخافة أن تحبط ويضيع ثواب أعمالكم التي ترجون ثوابها وأنتم لا تشعرون بذلك.

* * *

وبعد هذا النهي: يرغب ربنا تبارك وتعالى في خفض الصوت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله:

{ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ }
[الآية : ٣]

نعم .. إن الذين يغضون يخفضون أصواتهم عند رسول الله إجلالاً له، واحتراماً أولئك هم الذين امتحن الله قلوبهم وسعها وشرحها للتقوى
ولذلك لهم عند ربهم مغفرة ولذنوبهم وأجر عظيم وهو الجنة.

* * *

وبعد أن حدثنا المولى عن الذين يغضون أصواتهم: يبين لنا المقابل لهم فقال: يا محمد.

{ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ }
[الآيتان : ٤، ٥]

نزلت هاتان الآيتان في قوم من الأعراب نادوا النبي صلى الله عليه وسلم بغلظة وجفاء.
فأنزل المولى ذلك تعليماً للأمة، وبياناً لمكانة المصطفى صلى الله عليه وسلم.
حيث قال له إن هؤلاء الذين ينادونك من وراء الحجرات الخاصة بنسائك أكثرهم لا يعقلون الأدب مع الله، ومعك، فهم جهال، وفيهم سفاهة عقول.
خاصة وأنهم جاؤا يطلبون منك إطلاق سراح أسراهم.
و لذلك لو أنهم صبروا ولم يتعجلوا، ولم ينادوا بهذه الغلظة، وانتظروا حتى تخرج إليهم فيقولون لك ما يريدون لكان خيراً لهم في دنياهم وآخرتهم.
ثم يدعوهم المولى إلى التوبة فيقول والله غفور رحيم
فاستغفروه، وتوبوا إليه، واطلبوا رحمته، بطاعة رسوله، والأدب معه، والعمل بشرعه وسنته.

* * *

وبعد الحديث عن هذين الندائين الآلهيين للمؤمنين ...
يأتي النداء الثالث .. فيقول سبحانه:

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ }
[الآية : ٦]

هذه الآية: في ضرورة التثبت من الأخبار، حتى لا تكون فتنة، ويحدث بسببها ما لا تحمد عقباه.
إن جاءكم فاسق بنبأ بخبر فتبينوا من صحته، وتثبتوا مخافة أن تصيبوا بتصرفكم بناءً على هذا الخبر قوماً بجهالة وضرر وأذية فتصبحوا وتصيروا على ما فعلتم بناءً على هذا الخبر نادمين

* * *

{ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ * فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ }
[الآيتان : ٧، ٨]

يعني: وأعلموا أيها المؤمنون أن فيكم رسول الله فعظموه، ووقروه، واتبعوا سنته؛ فهو أعلم بما فيه صالحكم، كما أنه لو يطيعكم في كثير من الأمر الذي تختارونه، أو تحبونه لعنتم أي: وقعتم في شدة وحرج ومشقة.
وهذا: لمن أرادوا أن يتبعهم النبي صلى الله عليه وسلم فيما يريدون.
وأما الذين أرادوا أن يتبعوا هم النبي صلى الله عليه وسلم فيما يريد فيقول لهم ربهم:
ولكن الله حبب إليكم وإلى نفوسكم الإيمان فاسترحتم إليه وزينة حسنة في قلوبهم فعملتم به.
و في ذات الوقت كره إليكم الكفر والفسوق والعصيان
ثم يقول عن هؤلاء مرغباً بغيرهم في اتباع طريقتهم:
أولئك هم الراشدون الذين أرشدهم الهل إلى الصواب. وإلى كل خير.
وذلك الإرشاد فضلاً من الله عليهم ونعمة منه خصهم بها.
والله عليم بمن يستحق ذلك من عباده حكيم فيما يفعل.

* * *

هذا ..

ولما حذر ربنا من التصرف بناءً على خبر الفاسق.
ولكن مع هذا التحذير: قد يحدث تصرف بناءً عليه، ويكون قتال.
لذا بين الله الفعل المناسب الواجب على الأمة في هذه الحالة.
فقال:

{ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ }
[الآية : ٩]

أي: وإن حدث شيء من كاذب، أو إشاعة مغرضة، أو خلاف لسبب ما، وطائفتان المؤمنين اقتتلوا نتيجة لذلك ..
فأصلحوا بينهما بسرعة، ولا تتركوا هذا الخلاف يزداد، ولا هذا القتال يستمر؛ حتى يسود الود، ويعم السلام، ويتفرغ الجميع للعمل الصالح البناء النافع للأمة.
فإن بغت أحداهما رفضت الصلح العادل، واستمرت في العدوان على الطائفة الأخرى.
ماذا نفعل يا ربنا .. ؟
فقاتلوا بقوة إسلامية موحدة، الطائفة التي ترفض الصلح، وتبغي أو تصالح، ثم تعود وتنقض هذا الصلح، وتبغي على الأخرى.
وذلك: حتى تفيء أي: ترجع إلى أمر الله شرعه، وتكتب الصلح، وتلتزم به.
فإن فاءت رجعت عن عدوانها، ورضيت الصلح وشرع الله: فأصلحوا بينهما بالعدل الذي أمر الله به وأقسطوا أزيلوا الخلاف بينهما.
حيث إن الله يحب المقسطين

* * *

يا أيها الذين آمنوا:

{ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ }
[الآية : ١٠]

إنما المؤمنون إخوة بين رابطة قوية، وهي رابطة الدين والحب في الله، والتناصر بالحق فلا تتركوهم يدب الخلاف بينهم، ويسرق الشيطان منهم هذه الأخوة.
وإذا حدث خلاف فأصلحوا بسرعة بين أخويكم المتخاصمين، أو المتقاتلين.
واتقوا الله في تدخلكم هذا، وأخلصوا نياتكم، وأحكموا بالعدل بينهما لعلكم ترحمون جميعاً من مخاطر الخلاف والعداوة والقتال، وذلك بسبب تقواه سبحانه وتعالى.

* * *

وبعد أن بين ربنا تبارك وتعالى وأرشد المؤمنين إلى ما ينبغي أن يكون من الأدب مع الله، ومع رسوله، ومع المؤمن الفاسق.
وذلك في النداءات الثلاثة السابقة.
يبين عز وجل في هذا النداء الرابع ما ينبغي من الأدب مع المؤمن الحاضر.
إذ يقول سبحانه وتعالى:

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْراً مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ }
[الآية : ١١]

في هذه الآية: تدريب على أدب كريم، وخلق عال، للمسلم؛ حيث ينهاه ربه عن ثلاثة أشياء هي: السخرية، واللمز، والنبز، وهي أخلاق ثلاثة سيئة، لا يحبها الله في المؤمن.
أولاً: لا يسخر لا يستهزئ قوم من قوم رجال من رجال، أفراداً كانوا أو جماعة عسى أن يكون أي: المستهزأ بهم خيراً منهم، عند الله تعالى.
ولا يسخر نساء كذلك من نساء غيرهن عسى أن يكن خيراً منهن
ثانياً ولا تلمزوا غيركم، وتطعنوا فيهم فهم أنفسكم حيث إن المسلمين كالجسد الواحد، ولا ينبغي أن يطعن العاقل في نفسه.
ثالثاً: ولا تنابزوا بالألقاب فتنادون بعضكم بعضاً بألقاب لا تحبونها.
ومن يفعل هذا: فهو مخالف لشرع الله، ويصح أن يطلق عليه لفظ الفاسق.
وبئس هذا الفسوق عنده بعد الإيمان الذي أنعم الله عليه به.
على أية حال: توبوا أيها المؤمنون من هذه الأخلاق السيئة.
ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون لأنفسهم.

* * *

وبعد هذا..
يكون النداء الخامس للمؤمنين.
وفيه: ما ينبغي من الأدب مع المؤمن الغائب.
حيث يقول تبارك وتعالى:

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ }
[الآية : ١٢]

وفي هذه الآية كذلك: تدريب على أدب كريم، وخلق رفيع؛ ينبغي أن يتحلى به المسلم.
حيث ينهاه ربه عن ثلاثة أشياء: هي: الظن السيئ، والتجسس، والغيبة.
وهي: أخلاق سيئة، لا يحبها الله في المؤمن.
أولاً: اجتنبوا كثيراً من الظن حيث إن بعض الظن إثم وهو الظن السيء.
ثانياً: ولا تجسسوا على بعضكم بعضاً، وتبحثوا عن العيوب.
ثالثاً: ولا يغتب بعضكم بعضاً والغيبة: أن تذكر أخاك بما يكره، وهي: ذكر العيب في ظهر الغيب.
ثم ينفر الله عن ذلك بطريقة قوية رهيبة حيث يقول أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً؟
أبداً .. لا يحب أحد ذلك .. نعم فكرهتموه
وعلى ذلك: فينبغي أن تكون كراهيتكم للغيبة كذلك.
واتقوا الله يعينكم الله على التحلي بهذه الأخلاق.
وتوبوا عما سبق منكم أن الله تواب يقبل توبة عبده.
رحيم يغفر الذنب، ويرحم من عاد إليه، وصلح حاله.
وبعد هذه النداءات الخمسة للمؤمنين: يخاطب الله عز وجل المؤمنين والكافرين والناس جميعاً بهذا النداء:

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ }
[الآية : ١٣]

يا أيها الناس جميعاً إنا خلقناكم من ذكر هو آدم عليه السلام وأنثى هي حواء عليها السلام فلا معنى للتفاخر بالحسب والنسب، والتعالي على بعضكم بعضاً بسبب ذلك.
و أيضاً جعلناكم بقدرتنا شعوباً وقبائل عديدة متنوعة لتعارفوا فتعاونوا على البر والتقوى.
أما إذا أردتم التفاخر والتفاضل، فأعلموا أنه يكون بالإيمان والتقوى.
نعم إن أكرمكم وأفضلكم عند الله وأقربكم إليه، وأعلاكم ببين خلقه عنده أتقاكم له سبحانه.
إن الله عليم بكرم القلوب وتقواها خبير بالنفوس وهواها.

* * *

ولما قال ربنا عز وجل إن أكرمكم عند الله أتقاكم .. !!
ظهر أن الأكرم من اتقى ربه.
ومن المعلوم: أنه لا يتقي ربه إلا المؤمن.
وبذلك: صار الكرم بالإيمان.
ومن هنا.. ادعى بعض الأعراب ــ بمجرد نطقهم الشهادتين ــ الإيمان، فبين الله تعالى لهم .. أن الإيمان ليس بالقول.
فقال:

{ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ }

[الآية : ١٤]

أي: قالت الأعراب لرسول الله مدعية هذا الشرف آمنا في الوقت الذي لم يتمكن الإيمان في قلوبهم بعد ..
ولذلك: قال ربنا لحبيبه صلى الله عليه وسلم قل لهم لم تؤمنوا وتصدقوا بقلوبكم، فلا تقولوا آمنا ولكن أسلمتم، وانقدتم بجوارحكم فقط، ولهذا قولوا أسلمنا.
نعم .. أسلمتم ظاهراً ولما يدخل الإيمان في قلوبكم حتى يجتمع الظاهر والباطن، فيصير الإسلام والإيمان شيئاً واحداً.
و على كل حال ...
إن تطيعوا الله ورسوله في كل أموركم لا يلتكم لا ينقصكم من ثواب أعمالكم شيئاً حيث إن الله غفور للذنوب رحيم بعباده.

* * *

ولما نفى ربنا عنهم الإيمان الذي ادعوه بين لهم الإيمان الحقيقي، وأهله فقال:

{ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ }
[الآية : ١٥]

يعني: إنما المؤمنون الكاملون حقيقة هم الذين اتصفوا بما يلي:
أولاً: آمنوا أي: وثقوا بـــ دين الله وشرعه، الذي جاء به رسوله والتزموا به، وجعلوه منهاج حياتهم.
ثانياً: ثم لم يرتابوا أي: لم يشكوا في شيء منه، لا يمس طريق الشبهات التي يثيرها المغرضون، ولا عن طريق الشهوات التي يروجها المنحرفون.
ثالثاً: وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله إعلاءً لكلمته، ونشرا لدعوته، ولم يبخلوا بشيء من ذلك.
أولئك الموصوفون بهذه الصفات هم الصادقون في إيمانهم، وليس يدعون الإيمان، دون تضحية بغال أو رخيص من أجل هذا الدين، وليس من يدعون الإيمان، دون توائم بين ظاهرهم وباطنهم.

* * *

ولذلك يقول ربنا للنبي صلى الله عليه وسلم:

{ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ }
[الآية : ١٦]

أي: قل لهؤلاء الذين يدعون الإيمان أتخبرون الله بما في صدوركم، ظناً منكم أنه لا يعلم ذلك ــ وحاشا لله ــ أو ظناً منكم أنه لا يكشف سركم .. !!
لا .. إنه يعلم ذلك، وأكثر من ذلك، إنه سبحانه يعلم ما في السموات وما في الأرض
والله عز وجل فوق هذا وذاك بكل شيء عليم فاحذروه.

* * *

ثم يبين مظهراً من مظاهر عدم تمكن الإيمان من قلوب هؤلاء ..
فيقول سبحانه:

{ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ }
[الآية : ١٧]

يمنون عليك أن أسلموا يعني: يعدون إسلامهم إنعاماً منهم عليك.
وهذا: فهم خاطيء، ومنّ سيئ.
لذلك: قل لهم لا تمنوا على إسلامكم حيث لا نفع لي به، إنما نفعه يعود عليكم أنتم.
بل الله حقيقة.. هو الذي يمن عليكم أن هداكم للإيمان الذي تدعونه إن كنتم صادقين في قولكم آمنا.
حيث إن المنّ بتعداد النعم من العبد مذموم مرفوض، ومن الله عز وجل ممدوح مرغوب؛ لأنه صاحب كل النعم، والعبد لا يملك شيئاً.

* * *

حقاً:

{ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ }
[الآية : ١٨]

إن الله تبارك وتعالى، لا يخفى عليه أسراركم، وأعمال قلوبكم، حيث إنه يعلم غيب السموات والأرض كله، ومن ذلك نياتكم.
والله بصير بما تعملون وسيجازيكم عليه بما ستحقون.

* * *

بقلم فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

الذاريات

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة: مكية.
وهي: تبدأ بقوله عز وجل.

{ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْواً * فَالْحَامِلاتِ وِقْراً * فَالْجَارِيَاتِ يُسْراً * فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً }
[الآيات : ١ — ٤]

يقسم الله عز وجل في هذه الآيات بشيء من مخلوقاته،ولله أن يقسم بما شاء.
والمعنى: و الرياح الذاريات المثيرة للتراب وغيره ذروا بقدرة الله سبحانه وتعالى.
فالحاملات للسحب في الفضاء وقرا ثقيلة بما تحمل من ماء.
فالجاريات في الفضاء الرهيب يسرا
فالمقسمات لما تحمل من مطر فتسقطه على هذا المكان دون هذا المكان أمراً من الله لها بذلك.
كل هذا قسم ... وهو قسم عظيم.
ولكن ما جواب القسم ؟
وأين هو .. ؟

* * *

استمع معي إلى قول الحق سبحانه:

{ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ * وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ }
[الآيتان : ٥، ٦]

هذا هو جواب القسم.
إن الذي توعدون به، وهو البعث [الصادق]
وإن الدين أي: الجزاء بعد الحساب الواقع لا محالة، ولا شك في ذلك.

* * *

وبعد هذه البداية القوية ..
يخاطب ربنا الكافر قائلاً:

{ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ * إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ * يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ}
[الآيات : ٧–٩]

قسم وجوابه.
القسم بالسماء ذات الحبك أي: الطرق، التي هي مسارات الكواكب والنجوم، وهي آية عظيمة من آيات الله.
وجواب القسم: إنكم أيها الكفار في قول مختلف لأنكم على باطل، فمنكم من يقول على محمد إنه شاعر، ومن يقول إنه ساحر، ومن يقول: إنه أحد العظماء فقط وليس نبياً.
على كل حال:
يؤفك عنه يصرف عنه ولا يؤمن به، ولا يتبعه من أفك من صرف عن الهداية.

* * *

هؤلاء يقولون على محمد خرصاً أي: بدون علم والله يقول عنهم مهدداً.

{ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ * يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ * يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ * ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ }
[الآيات : ١٠–١٤]

قتل أي: لعن وهلك هؤلاء الخراصون الكذابون الذين هم في غمرة من الجهل ساهون عن الحق، وعن الآخرة.
لا هم لهم إلا أنهم يسألون مستهزئين، قائلين أيان متى يوم الدين أي: الجزاء هذا .. ؟
والجواب.
يوم الدين: يكون يوم هم على النار يفتنون أي: يعذبون، ويقال لهم ذوقوا فتنتكم عذابكم هذا هو الذي كنتم به تستعجلون مستهزئين.

* * *

وبعد بيان حال المكذبين: يأتي بيان حال المصدقين المتقين ..
فيقول رب العالمين.

{ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ * كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ }
[الآيات : ١٥–١٩]

نعم .. إن المتقين لربهم في جنات بساتين وعيون تجري بالماء فيها، ومن تحتها.
آخذين باستمرار لا ينقطع، بكل رضا وقبول، متملكين ما آتاهم ربهم من فضل ونعيم.
تقول: ما سبب كل ذلك .. ؟
الجواب إنهم كانوا قبل ذلك اليوم، أي وهم في الدنيا محسنين.
تقول: كيف كانوا محسنين .. ؟
أولاً: كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون ينامون، لقيامهم الليل، وعبادتهم لله، ومناجاته طلباً لرضاه.
ثانياً: وبالأسحار أي: وقت السحر هم يستغفرون الله على ما مضى من ذنوبهم.
ثالثاً: وفي أموالهم التي رزقهم الله بها حق يعطونه للسائل والمحروم

* * *

ثم يقدم ربنا تبارك وتعالى لهؤلاء الخراصين المكذبين دلائل على وحدانيته، وقدرته.
فيقول:

{ وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ * وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ }
[الآيات : ٢٠–٢٢]

أي: و قد جعل الله تعالى في الأرض آيات تدل على وحدانيته وقدرته للموقنين من عباده.
و كذلك جعل لكم في أنفسكم آيات تدل على وحدانيته، وقدرته، أ غفلتم فلا تبصرون هذه الآيات، فتعتبرون بها، فتؤمنون!!
و أيضاً جعل سبحانه في السماء رزقكم فلا يملكه أحد سواه، ولا يجود عليكم به سواه.
[و] جعل فيها مكتوباً ما توعدون به من الثواب والعقاب.

* * *

ثم يقسم ربنا عز وجل على صدق ذلك وأحقيته..
فيقول سبحانه:

{ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ }
[الآية : ٢٣]

أي: فعزتي وجلالي إنه أي: الذي توعدون لحق واقع بكم، واصل إليكم، لا محالة.
وذلك مؤكد [مثل ما أنكم تنطقون] وتتكلمون.

* * *

وبعد ذلك..
يخاطب ربنا حبيبه صلى الله عليه وسلم ليؤنسه بقربه ورضاه، ويخفف عنه آلام تكذيبهم له، ويبشره بالفرج، كما حدث مع إخوانه الأنبياء.
الذين يقص عليه أطرافاً من قصصهم.
فيقول تبارك وتعالى في القصة الأولى وهي: قصة إبراهيم عليه السلام.

{ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ }
[الآية : ٢٤]

هل عرفت قصة ضيف إبراهيم عليه السلام المكرمين، وماذا حدث معهم ... ؟
وكأنه عليه السلام يقول:ماذا حدث لهم يا رب .. ؟

* * *

فيكون الجواب.

{ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَاماً قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ * فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ * فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ * فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ }
[الآيات : ٢٥-٢٨]

اسمع واذكر .. وقت أن دخلوا عليه أي: ضيوفه، وكانوا عدداً.
فقالوا له سلاماً أي: حيوه، بقولهم: السلام عليكم.
قال لهم مجيباً سلام لكم، تفضلوا.
في الوقت الذي هم له قوم منكرون لا يعرفهم، ولا يعرف لماذا قد جآؤا.
ومع ذلك كان في غاية الكرم فراغ ذهب فوراً إلى أهله في خِفْيةً منهم، وطلب إعداد طعام لهم جيد.
وأعد الطعام فجاء لهم بعجل سمين مشوي.
ووضعه أمامهم .. فلم يأكلوا.
فقربه إليهم وعزم عليهم أن يأكلوا .. فلم يأكلوا.
قال ألا تأكلون .. فلم يجيبوا.
فأوجس أضمر في نفسه منهم خيفة وله الحق في ذلك.
وعرفوا في وجه: خوفه، وما يدور بداخله.

لذلك: قالوا له لا تخف منا نحن ملائكة، نحن رسل ربك إليك وبشروه بغلام يولد له، موصوف بأنه عليم.

* * *

هذا الحوار ــ أيها الأحبة ــ سمعته زوجته سارة ..
يقول المولى:

{ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ }
[الآية : ٢٩]

يعني: فأقبلت امرأته سارة إلى الضيوف في صرة أي: صيحة من غرابة ما سمعت فصكت وجهها كما تفعل الناس حياءً، وقالت أألد وأنا عجوز عقيم؟

* * *

فأجابها الملائكة:

{ قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ }
[الآية : ٣٠]

قالوا لها الأمر كما سمعت، لقد قال ربك إنك ستلدين هذا الغلام العليم، وليس هذا من كلامنا، بل نحن نبشر فقط. إنه سبحانه هو الحكيم في صنعه العليم بخلقه.

* * *

إن إبراهيم عليه السلام .. لما أنس للملائكة، وسعد ببشارتهم:
أدرك أن الأمر أكبر من ذلك، وأن مجيئهم لمهمة عظمى.
لذا ..

{ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ }
[الآية : ٣١]

قال لهم: خبروني ما السبب الحقيقي لمجيئكم .. ؟

* * *

وأجابوه ..

{ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ * لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ * مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ }
[الآيات : ٣٢-٣٤]

قالوا له إنا أرسلنا من ربك إلى قوم مجرمين وهم قوم لوط، الذين عمت فيهم الفاحشة، ولم يستجيبوا للوط عليه السلام حين أمرهم بتركها، وظلوا على كفرهم، وفاحشتهم.
نعم .. جئنا لنرسل أي: ننزل عليهم عذاباً لهم، وإهلاكاً حجارة من طين مطبوخ بالنار.
هذه الحجارة مسومة معلمة عند ربك كل حجر عليه اسم صاحبه.
للمسرفين الكافرين، الذين استمرؤا هذه الفاحشة، وعاندوا نبيهم. وهذه هي القصة الثانية التي يؤنس المولى بها محمداً صلى الله عليه وسلم.

* * *

وهذا هو الحوار الذي دار بين سيدنا إبراهيم عليه السلام وبين الملائكة ..
ثم يخبرنا المولى عما حدث لهؤلاء المجرمين بإيجاز شديد، فيقول: عز وجل:

{ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ }
[الآية : ٣٥]

وذلك حينما قال المولى للوط عليه السلام فأسر بأهلك بقطع من الليل [الحجر٦٥] حتى يهلك الله هؤلاء المجرمين، وخرج لوط بأهله إلا امرأته كانت من الغابرين الهالكين [الأعراف٨٣].
ولما خرج لوط بأهله: يخبر تعالى عن قلة أتباعه الصالحين بقوله:

{ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ }
[الآية : ٣٦]

ومع ذلك: نجاهم الله عز وجل من الهلاك
ودمر الله الباقين .. حيث يقول فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل منضود * مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد [هود٨٢، ٨٣]

* * *

{ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الأَلِيمَ }
[الآية : ٣٧]

يعني وتركنا في هذه القرية آية علامة على هذا الذي حدث للذين يخافون العذاب الأليم يستفيدون بها، في بعدهم عن الفواحش، ومعصية الله سبحانه وتعالى.

* * *

وفي القصة الثالثة .. يقول تبارك وتعالى:

{ وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ * فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ }
[الآيات : ٣٨–٤٠]

أي: وفي قصة موسى آية وعبرة ..
وذلك إذّ أرسلناه إلى فرعون ليدعوه إلى الإيمان والهداية بسلطان مبين بحجة واضحة، ودليل ظاهر على نبوته.
فتولى فرعون، وأعرض عنه، ولم يستجب له، معتزاً بركنه الذي يحتمي به، ويعتمد عليه في طغيانه من: جند، وعتاد، ... الخ.
وقال أيضاً لقومه ليصرفهم عن الهداية: هذا ساحر جاء يفتنكم أو مجنون فلا تستمعوا إليه.
وهكذا .. عاند، وطغى، وتجبر .. !!
فأخذناه وجنوده بقدرتنا فنبذناهم ألقيناهم في اليم وهو البحر .. وأهلكناهم.
وانتهى أمر فرعون وهو مليم معاند، كافر، ملوم.

* * *

وفي القصة الرابعة .. يقول تبارك وتعالى:

{ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ * مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ }
[الآيتان : ٤١، ٤٢]

أي: وفي قصة عاد قوم هود .. آية وعبرة.
وذلك إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم المفسدة، التي لا خير فيها، بعد أن كذبوا هوداً عليه السلام، وعاندوه، وطغوا في البلاد، وأكثروا فيها الفساد.
وهذه الريح: كانت ما تذر ما تترك من شيء أتت عليه ومرت به إلا جعلته سواء كان حيواناً أو نباتاً .. هالكاً، بالياً كالرميم البالي الذي لا نفع به.

* * *

وفي القصة الخامسة .. يقول ربنا تبارك وتعالى:

{ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ * فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ * فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ }
[الآيات : ٤٣-٤٥]

أي: وفي قصة ثمود قوم صالح .. آية وعبرة.
وذلك إذ قيل لهم على لسان نبيهم آمنوا بالله، وتمتعوا بما أحل لكم حتى حين آجالكم ونهاية أعماركم، وأنتم محافظون على طاعته.
ولكنهم: استكبروا وعاندوا فعتوا عن أمر ربهم وخالفوه وعاندوا نبيهم.
فأخذتهم الصاعقة فأهلكتهم وهم ينظرون
ومع ذلك فما استطاعوا من قيام ليهربوا من هذا الهلاك، وما كانوا منتصرين لو استطاعوا القيام.
حيث إن الذي ينجي من العذاب .. هو الإيمان والعمل الصالح فقط.

* * *

وفي القصة السادسة .. يقول جل شأنه:

{ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ }

[الآية : ٤٦]

يعني و أهلكنا يا محمد قوم نوح عليه السلام من قبل هؤلاء.
وذلك: لما عاندوا نبيهم، كما يعاندك قومك.
حيث إنهم كانوا قوماً فاسقين خارجين عن طاعتنا.

* * *

لئن كان المولى سبحانه .. قد لفت أنظارنا، ووجه اهتمامنا إلى آياته الدالة على وحدانيته وقدرته، والمبثوثة في الأرض، وفي الأنفس، وفي السماء .. !!
ولئن كان عز وجل .. قد اسمعنا وهو يناجي حبيبه بآياته الدالة كذلك على واحدانيته وقدرته، في قصص هذه الزمرة النفيسة من الأنبياء عليهم السلام مع أقوامهم .. !!
فإنه تبارك وتعالى: يعرض علينا ــ ثالثاً ــ مجموعة من الآيات الدالة على وحدانيته وقدرته، ليزداد إيماننا ، وليستقيم صفنا، وليجتمع شملنا على هذا الدين العظيم.
إذ يقول سبحانه:

{ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ * وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ المَاهِدُونَ * وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ }
[الآيات : ٤٧–٤٩]

يعني و جعلنا السماء في ذاتها .. آية.
حيث بنيناها بأيد بقوة وقدرة لا يعلمها أحد، بل يرى كل أحد آثارها فقط وإنا فوق ذلك لموسعون لها، حيث نجعلها في امتداد دائم، واتساع مستمر.
و كذلك جعلنا الأرض في ذاتها .. آية.
حيث فرشناها للمخلوقات بالنعم، وبسطناها لهم فنعم الماهدون الممهدون، المسوون، المصلحون لها؛ لينتفع بها أهلها.
ومن كل شيء خلقنا زوجين كالذكر والأنثى، والنور والظلام، والصيف والشتاء لعلكم تذكرون بذلك، فتعرفون وحدانية الله، وقدرته.

* * *

هذا .. وبعد أن تلا النبي صلى الله عليه وسلم هذه الآيات والدلائل الداعية إلى الإيمان.
يقول له ربه عز وجل قل لهم:

{ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * وَلا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ }
[الآيتان : ٥٠، ٥١]

أي: ففروا أيها الناس سريعاً، من الشرك، ومن المعاصي إلى الله إيماناً به، وطاعة له، واعتماداً عليه ولجوءاً إليه.
حيث إني لكم مرسل منه سبحانه نذير مبين واضح، في دعوتي لكم، وتخويفي إياكم من غضبه وعذابه.
نعم .. ففروا إلى الله، ووحدوه ولا تجعلوا مع الله سبحانه إلهاً آخر من صنعكم، أو من صنع الشيطان لكم، فتضيعوا.
حيث إني لكم مرسل منه تعالى نذير مبين واضح في دعوتي لكم، وتخويفي إياكم من غضبه وعذابه.

* * *

ثم يقول له تبارك وتعالى للنبي صلى الله عليه وسلم، مخففاً عنه آلام تكذيب قومه له.

{ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ }
[الآية : ٥٢]

يعني: كذلك التكذيب الذي يفعله قومك معك ما أتى الذين من قبلهم من الأمم السابقة من رسول يدعوهم إلى الإيمان، كما تفعل أنت مع قومك إلا قالوا له،وعنه: إنه ساحر أو مجنون

* * *

ولما أجمعت هذه الأمم على هذا القول لرسلها .. !!
كأن سائلاً يسأل متعجباً .. فيأتيه الجواب.
اسمع معي ..

{ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ }
[الآية : ٥٣]

يعني: أكان بينهم اتفاق ووصية أن يقولوا جميعاً ساحر أو مجنون .. ؟
الجواب .. لا؛ حيث إنهم لم يتلاقوا.
بل هم قوم طاغون جمع بينهم الطغيان، والكفر، والجحود.

* * *

لهذا ... يقول ربنا لمحمد صلى الله عليه وسلم:

{ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ }
[الآية : ٥٤]

أي: فأعرض عن هؤلاء الذين دعوتهم مراراً ولا ملامة عليك، فقد أديت الأمانة، وبلغت الرسالة.

* * *

فقط ..

{ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ }
[الآية : ٥٥]

و لكن ذكر بالقرآن، واتلوه على مسامع الدنيا كلها فإن هذه الذكرى إن لم يهتد بها الكافرون .. فإنها تنفع المؤمنين الباحثين عن الهداية، ومرضاة الله.
ومن هذا التذكير .. قولي:

{ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ }
[الآيات : ٥٦-٥٨]

نعم .. يقول ربنا سبحانه وما خلقت الجن والأنس لأية مهمة، وغاية إلا ليعرفوني، وليعبدوني.
ولذلك ما أريد منهم إذ خلقتهم من رزق لي، ولا لأنفسهم، ولا لغيرهم من عبادي.
و كذلك ما أريد أن يطعمون فأنا منزه عن ذلك.
حيث إن الله عز وجل هو الرزاق لخلقه ذو القوة القدرة المطلقة المتين الشديد في الدنيا والآخرة.

* * *

ولهذا ..

{ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوباً مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلا يَسْتَعْجِلُونِ * فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ }
[الآيتان : ٥٩، ٦٠]

أي: فإن للذين ظلموا بكفرهم، وعدم إتباع رسلهم ذنوباً نصيباً من عذاب الله مثل ذنوب أصحابهم الذين كفروا من قبلهم.
وهذا وعيد وتهديد لا شك فيه فلا يستعجلون هذا العذاب فهو واقع بهم لا محالة.
فويل وهلاك للذين كفروا من يومهم هذا الذي يوعدون العذاب فيه.

* * *

بقلم فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

الحديد

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة مدنية.
وهي تبدأ بقوله الله عز وجل:

{ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ }
[الآية : ١]

أي: نزه الله تبارك وتعالى كل (ما في السموات والأرض)
وهو سبحانه (العزيز) الغالب لكل شيء (الحكيم) في جميع الأفعال.

* * *

وهو سبحانه:

{ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }
[الآية : ٢]

نعم (له) لا لغيره (ملك السموات والأرض) وما فيهما، ومن فيهما.
وهو سبحانه (يحي) الموتى (ويميت) الأحياء بقدرته.
(وهو) سبحانه (على كل شيء قدير) ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.
إنه سبحانه:

{ هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ }
[الآيتان : ٣، ٤]

(هو) سبحانه (الأول) السابق على جميع الموجودات.
(و) هو سبحانه (الآخر) الباقي بعد فناء جميع الموجودات.

(و) هو سبحانه (الظاهر) وجوده عن طريق مخلوقات وإنعاماته.
(و) هو سبحانه (الباطن) الذي (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار) [الأنعام ١٠٣].
(وهو) سبحانه (بكل شيء عليم) إجمالاً وتفصيلاً.
(وهو) سبحانه (الذي خلق السموات والأرض) بقدرته (في ستة أيام ثم استوى على العرش) استواءً يليق بذاته جل وعلا.
وهو سبحانه (يعلم ما يلج) يدخل (في الأرض وما يخرج منها).
(و) هو سبحانه يعلم (ما ينزل من السماء) من ملائكة وأمطار، وغير ذلك (وما يعرج) يصعد (فيها) من الملائكة والأرواح والدعوات.
(وهو) سبحانه (معكم) بعلمه وقدرته ورحمته (أينما كنتم) ومتى كنتم.
(والله) سبحانه (بما تعملون بصير) رقيب عليكم، شهيد على أعمالكم فيجازيكم بما تستحقون.

* * *

سبحانه:

{ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ * يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ }
[الآيتان : ٥، ٦]

حقاً (له) سبحانه لا لغيره (ملك السموات والأرض) وما فيهما ومن فيهما.
(و) لذلك (إلى الله) وحده (ترجع الأمور) في الدنيا والآخرة.
حيث إنه القادر..
ألا ترى أنه (يولج) يدخل الليل في النهار ويولج النهار في الليل بقدرته وعظمته..!!
(وهو) كذلك (عليم بذات الصدور) يعلم السرائر، وإن خفي ما فيها.
ومن كان هذا شأنه ووصفه فإن مرجع الأمور كلها ــ بالضرورة ــ إليه سبحانه.

* * *

لكل هذا..

{ آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ }
[الآية : ٧]

(آمنوا) أي: صدقوا (بالله ورسوله) محمد صلى الله عليه وسلم.

أيضاً.. (وأنفقوا) من مال الله الذي (جعلكم) سبحانه (مستخلفين فيه) لا ما مالكين له، حيث إن المالكية لله وحده، فكل شيء ملكه، ونحن عبيده.
آمنوا، وأنفقوا..
(فالذين آمنوا منكم) بالله ورسوله (وأنفقوا) في سبيل الله (لهم) عند الله (أجر كبير).

* * *

ويناقش ربنا عز وجل المتقاعسين عن الإيمان..
فيقول:

{ وَمَا لَكُمْ لاَ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ }
[الآيتان : ٨، ٩]

(ومالكم) وأي عذر لكم يجعلكم (لا تؤمنون بالله) تعالى.
خاصة: (والرسول يدعوكم) بالحكمة والموعظة الحسنة، والأدلة الواضحة (لتؤمنوا بربكم)..!!
(و) كما أنه سبحانه (قد أخذ ميثاقكم) بما ركب فيكم من العقل الذي يعرف صدق دعوة الرسل.
وذلك (إن كنتم مؤمنين) بشيء لأجل دليل.
فهذا هو الدليل فما لكم لا تؤمنون إذاً..؟
على أية حال:
(هو) سبحانه (الذي ينزل على عبده) محمد صلى الله عليه وسلم (آيات بينات) واضحات، في القرآن الكريم.
وذلك (ليخرجكم) بها (من الظلمات إلى النور)
(وإن الله) سبحانه (بكم) على هذا النحو (لرؤوف رحيم).

* * *

ثم يناقش ربنا عز وجل كذلك المتقاعسين عن الإنفاق في سبيل الله..
فيقول:

{ وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ }
[الآيتان : ١٠، ١١]

(وما لكم) وأي عذر لكم في (ألا تنفقوا في سبيل الله) خاصة (والله ميراث) أي ملك (السموات والأرض) فأنتم لا تنفقون من ملككم؛ حيث إن الملك كله لله.
على كل حال..
إنه (لا يستوي منكم) في المنزلة والأجر (من أنفق) في سبيل الله (من قبل الفتح) أي: فتح مكة، وعز الإسلام (وقاتل) كذلك في سبيل الله مع من أنفق بعد الفتح وقاتل كذلك.
(أولئك) الذين أنفقوا من قبل الفتح وقاتلوا (أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد) الفتح (وقاتلوا).
(و) لكن..
(كلا) منهما (وعد الله الحسنى) أي: النتيجة الحسنة، وهي الجنة.
(والله) جلت حكمته (بما تعملون خبير) فيجازي كلا بما يستحق يا أهل الإيمان..!!
(من ذا الذي) منكم (يقرض الله قرضاً حسنا) أي: ينفق في سبيل الله..؟
ماذا يكون لمن يفعل ذلك..؟
يقول تعالى:
(فيضاعفه له) أي: يضاعف له ثوابه.
أيضاً (وله) فوق ذلك (أجر كريم) وهو رفع الدرجات.

* * *

ولكن..
متى يكون ذلك..؟

{ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}
[الآية : ١٢]

نعم.. يكون يوم القيامة.
(يوم ترى المؤمنين والمؤمنات) المنفقين في سبيل الله والمنفقات (يسعى) يتحرك (نورهم) معهم في كل اتجاه (بين أيديهم وبأيمانهم).
وتقول لهم الملائكة (بشراكم اليوم) لكم (جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها).
حقاً.. (ذلك هو الفوز العظيم)
أيضاً..

{ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ }
[الآية : ١٣]

نعم.. يكون ذلك أيضاً في يوم القيامة.
(يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا) الذين يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم وهم يسيرون إلى الجنة (انظرونا) أي: انتظرونا (نقتبس) نأخذ شيئاً (من نوركم) الذي حرمنا منه.
يقول تعالى: تهكماً بهم
(قيل) لهم (أرجعوا وراءكم) أي: إلى الدنيا إن كنتم تستطيعون (فالتمسوا نورا) بإيمانكم وإنفاقكم في سبيل الله.
فلا تستطيعون..!!
بل يكون الجواب العملي:
(فضرب بينهم) أي بين المؤمنين والمنافقين (بسور له باب) يدخل منه أهل الجنة.
وهذا السور (باطنه) للمؤمنين (فيه الرحمة) (وظاهره) للمنافقين (من قبله العذاب) لهم.
وساعتها:

{ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ * فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ }
[الآيتان : ١٤، ١٥]

* * *

(ينادونهم) أي: ينادي المنافقون على المؤمنين، قائلين لهم: (ألم نكن معكم) في الدنيا مرافقين لكم..؟
(قالوا أي: المؤمنين لهم: (بلى) لقد كنتم معنا (ولكنكم فتنتم أنفسكم) أهلكتموها (وتربصتم) بنا الدوائر (وارتبتم) في توحيد الله وقدرته، وفي القرآن، وفي البعث (وغرتكم الأماني) في المال والجاه والدنيا (حتى جاء أمر الله بالموت) دون أن تتوبوا وتؤمنوا.
(و) هكذا (غركم بالله) وعدم الإيمان به (الغرور) وهو الشيطان.
(فاليوم) وبكل حسرة منكم (لا يؤخذ منكم فدية) فداء لأنفسكم من النار (ولا من الذين كفروا) جميعاً.
حيث (مأواكم) سكنكم (النار هي مولاكم) أولى بكم (وبئس المصير) لكم. ثم.. حماية من الله للمؤمنين..!!
يحثهم على خشوع القلب لذكر الله.
وينهاهم عن قسوة القلب.
حيث يقول:

{ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ }
[الآية : ١٦]

(ألم يأن) ألم يحن الذين آمنوا (أن تخشع قلوبهم لذكر الله) وهو القرآن (وما نزل من الحق) فيه، فيحافظوا عليه، ويعملوا بما فيه..!!
(ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل) وهم اليهود والنصارى.. حرفوا كتاب الله، وبدلوه (فطال عليهم الأمد) وهو الزمن بينهم وبين أنبيائهم (فقست قلوبهم) حيث أصبحت لا تلين لذكر الله.
(وكثير منهم) بسبب ذلك (فاسقون) خارجون عن طاعة الله.
فلا تكونوا مثلهم.

* * *

أيضاً:

{ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ }
[الآية : ١٧]

نعم..(أعلموا) أيها المؤمنون (أن الله) عز وجل (يحي الأرض بعد موتها) بالنبات، وكذلك يحي القلوب بالخشية من الله بعد قسوتها.
وهكذا.. (قد بينا لكم الآيات) الدالة على قدرتنا، والداعية إلى خشيتنا (لعلكم تعقلون) دلالاتها، فتزدادون خشية لله، وإقبالاً علىطاعته، وإنفاقاً في سبيله.

* * *

ثم يقول سبحانه:

{ إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ }
[الآية : ١٨]

يعني: إن المتصدقين والمتصدقات.. (و) هم الذين (أقرضوا الله) أي: انفقوا في سبيله (قرضاً حسنا) بنية خالصة؛ ابتغاء مرضاته..!!
(يضاعف لهم) جزاء إنفاقهم.. الحسنة بعشر أثمالها، إلى سبعمائة ضعف.
(و) فوق ذلك (لهم) عند الله (أجر كريم) وهو الجنة.

* * *

حقاً..

{ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ }
[الآية : ١٩]

(إن الذين آمنوا) أي: صدقوا (بالله) واتبعوا (رسله) فيما أخبروهم به عن الله.
(أولئك هم الصديقون والشهداء) أي: بمنزلة الصديقين والشهداء (عند ربهم)
هؤلاء (لهم) عند الله (أجرهم) العظيم (ونورهم) يسعى بين أيديهم وبأيمانهم على مقدار عملهم الصالح في الدنيا.
(و) أما (الذين كفروا) بالله ورسله (وكذبوا بآياتنا) وهي المسطورة مثل القرآن، والمنظورة في الأكوان.
(أولئك) هم (أصحاب الجحيم)

* * *

يا أيها الناس..

{ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ }
[الآية : ٢٠]

نعم.. (اعلموا أنما الحياة الدنيا) في حقيقتها:
(لعب) كلعب الصبيان.
(ولهو) كلهو الفتيان.
(وزينة) كزينة النساء.
(وتفاخر بينكم) كتفاخر الأقران.
(وتكاثر) مباهاة (في) كثرة (الأموال والأولاد).
مثلها..
(كمثل غيث) مطر (أعجب الكفار) أي: الزراع (نباته) لخضرته.
(ثم يهيج) هذا النبات ويستوي (فتراه مصفراً) ذابلاً (ثم يكون حطاماً) يابساً متفتتاً.
وهكذا الدنيا لأهلها .....
(و) هي (في الآخرة) للكافرين (عذاب شديد)
(و) هي للمؤمنين (مغفرة من الله ورضوان)
(وما الحياة الدنيا) على هذا النحو (إلا متاع الغرور) لمن أنس لها، وأطمأن بها، وركن إليها.

* * *

لذلك يقول ربنا تبارك وتعالى:

{ سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ }
[الآية : ٢١]

أي: (سابقوا) بالأعمال الصالحة من فعل الطاعات، وترك المحرمات (إلى مغفرة من ربكم) تمحو ذنوبكم، وتكفر سيئاتكم (وجنة عرضها كعرض السماء والأرض) فما بالكم بطولها..؟
هذه الجنة الواسعة (أعدت) خلقت وهيئت (للذين آمنوا بالله ورسله).
كل (ذلك):
(فضل الله يؤتيه من يشاء) من عباده، وهم المؤمنون بالطبع.
(والله) سبحانه (ذو الفضل العظيم)

* * *

يا أيها الناس

{ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ }
[الآية : ٢٢]

يخبر الله عز وجل في الآية الكريمة عن قدره السابق في الخلق من قبل أن يخلقهم سبحانه.
والمعنى: (ما أصاب) أي: ما وقع (من) آية (مصيبة في الأرض) من آفات للزروع والثمار، أو زلزال أو غير ذلك.
(ولا) من مصيبة (في أنفسكم) من: مرض، أو موت.
(إلا) وهي موجودة مكتوبة (في كتاب) عندنا، وهو اللوح المحفوظ.
وذلك (من قبل أن نبرأها) أي: نخلق الأرض والأنفس.
(إن ذلك) الأمر، وإن كان عسيراً على العباد: فإنه (على الله) عز وجل (يسير).
حيث إن الله يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن كيف يكون، سبحانه وتعالى.

* * *

ثم يبين الله عز وجل الحكمة في إخبار عباده بذلك.
حيث يقول:

{ لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ * الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ }
[الآيتان : ٢٣، ٢٤]

يعني: أعلمناكم أن كل شيء بقدر الله (لكيلا تأسوا) تحزنوا حزناً يؤذيكم (على ما فاتكم) من متاع الدنيا، وزخرفها، وزينتها (ولا تفرحوا) فرحاً يطغيكم (بما آتاكم) الله، وأنعم عليكم من متاع الدنيا، وزخرفها، وزينتها.
ولأن الذي يزداد فرحه قد يختال ويفتخر بما عنده، ويتكبر على خلق الله فقد قال تعالى منبها لسوء هذا الصنيع.
(والله لا يحب كل مختال) في نفسه (فخور) على غيره.
ثم يصف هذا المختال بصفة تنبع من افتخاره هذا.. قائلاً:
هم (الذين يبخلون) ويعرضون عن الإنفاق.
بل أكثر من هذا حيث (يأمرون الناس) غيرهم (بالبخل) عن هذا الإنفاق.
وبهذا وذاك يتولون ويعرضون عن طاعة الله.
(ومن يتول) عن الإنفاق، وطاعة الله (فإن الله) عز وجل (هو الغني) عن جميع المخلوقات (الحميد) في أفعاله سبحانه.

* * *

وبعد أن يبين ربنا حكمته في الكشف عن قضائه في الخلق، وقدره،
يبين عز وجل حكمته في إرسال الرسل إلى خلقه سبحانه.
فيقول:

{ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ }
[الآية : ٢٥]

يعني: (لقد أرسلنا رسلنا) إلى الخلق (بالبينات) وهي: المعجزات الدالة على صدق الرسل، والدلائل الواضحات على وحدانيتنا وقدرتنا، لدعوة الناس إلى الإيمان بالله.
(وأنزلنا معهم الكتاب) وهو الوحي، الذي يوضح منهاج حياتهم، وصلاح أمرهم.
أنزلنا معهم كذلك (الميزان) الذي يكون ويتحقق به العدل في الأشياء والحقوق والواجبات.
وذلك (ليقوم الناس) ويتعاملون فيما بينهم وبين ربهم، وفيما بينهم وبين بعضهم البعض (بالقسط) وهو العدل الذي بينه الله وشرع التعامل به.
وأنزلنا ــ ثالثاً ــ (الحديد) أي: خلقناه لهم.
حيث فيه: (بأس شديد) قوة في السلم وفي الحرب، منه يصنع الكثير من الأدوات والآلات التي تستخدم عند الناس، وبها يتفقون ويكونون أقوياء.
وفيه كذلك (منافع للناس) يعرفونها في حياتهم الآنية، وفيما يجد لهم كذلك في حياتهم المستقبلية.
(وليعلم الله) به ثالثاً (من ينصره) أي: ينصر دعوته (و) ينصر (رسله) أيضاً بحسن استعماله لهذا الحديد، في مواجهة أعداء الدعوة.

وذلك (بالغيب) أي: وهو غائب عنهم، وهم غائبون عنه، لا ينصرهم، وهذه قمة اليقين، والصدق في الإيمان.
ومع كل هذا (إن الله قوي عزيز) لا يغالبه أحد..
فأولياؤه: منصورون، منصرون بإذن الله.

* * *

هذا..

{ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ }
[الآية : ٢٦]

يعني: إن من سنتنا إرسال الرسل إلى الخلق.
(ولقد أرسلنا) قبل محمد (نوحاً وإبراهيم) بدعوتنا وديننا (وجعلنا في ذريتهم) أي: أولادهما (النبوة والكتاب) أي: الوحي.
فبلغوا أقوامهم، الذين هم أيضاً من ذرية نوح وإبراهيم عليهما السلام.
(فمنهم) من أطاع وآمن فصار (مهتد) بهذه الدعوة.
(ومنهم) من أبى وعصى.
(وكثير منهم) أي من هذه الذرية (فاسقون) خارجون عن طاعة الله.

* * *

يقول سبحانه:

{ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ }
[الآية : ٢٧]

أي: ومضى الزمان (ثم قفينا) يعني: أرسلنا (على آثارهم)
أي: من بعد نوح وإبراهيم عليهما السلام من الذرية (برسلنا) رسولاً بعد رسول، يدعوهم كل رسول إلى التوحيد والإيمان بالله.
(وقفينا) بعد ذلك (بعيسى ابن مريم) أرسلناه بدعوتنا (وآتيناه الإنجيل) وحيا إليه، شريعة لأتباعه.

(وجعلنا) بحكمتنا (في قلوب الذين أتبعوه) وهم: الحواريون ومن على شاكلتهم (رأفة) رقة وخشية في قلبهم (ورحمة) بالخلق، وتوددا إليهم، وعطفا عليهم.
(و) وجعلوا (رهبانية ابتدعوها) لأنفسهم فروا بها في الجبال، وأخلصوا بها في العبادة.
ويلاحظ جيدا أننا (ما كتبناها) ولا فرضناها (عليهم).
ولكنهم ابتدعوها لأنفسهم (ابتغاء رضوان الله)
وكان ذلك قد يقبل منهم لو أنهم نجحوا بها فيما أرادوا
ولكن..
(فما رعوها حق رعايتها) أي: ما قاموا بما فرضوه على أنفسهم كما ينبغي، بل انحرفوا بها، وضموا إليها التثليث، والكفر بما في الإنجيل من البشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم، إلى غير ذلك.
على أية حال..
(فـــ) قد (آتينا الذين آمنوا منهم) وهم أهل الرأفة والرحمة الذين اتبعوا عيسى عليه السلام، الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم، كما بشرت به التوراة والإنجيل.
(و) لكن (كثير منهم فاسقون) خارجون عن طاعة الله.

* * *

هذا..
ولما قال اليهود: إن فضل الله وقف على موسى عليه السلام، وكفروا بعيسى وبمحمد عليهما السلام.
ولما قال النصارى: إن فضل الله وقف على عيسى عليه السلام، وكفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم.
أمر الله أتباع الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم وكل من يؤمن به وبرسالته بالتقوى والإيمان بالله ورسوله، وأن الفضل بيد الله وحده يعطيه من يشاء.
حيث قال:

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ }
[الآية : ٢٨]

يعني: (يا أيها الذين آمنوا) عليكم:
بتقوى الله.
والإيمان بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم، المقتضي للإيمان بجميع الرسل.
ولو فعلتم ذلك، وحافظتم عليه:
(يؤتكم) ربكم هذه المكارم:
أولاً: (كفلين) أي: ضعفين (من رحمته) وذلك للإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم، وبمن قبله من الرسل الكرام.
ثانياً: (ويجعل لكم نوراً) هدى وسبيلاً واضحاً (تمشون به) في حياتكم وأموركم وعباداتكم.
ثالثاً: (ويغفر لكم) ذنوبكم، التي كانت منكم.

* * *

كل ذلك:

{ لِئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ }
[الآية : ٢٩]

أي: كان هذا الفضل الإلهي لأتباع محمد صلى الله عليه وسلم ليعلم (أهل الكتاب) من اليهود والنصارى أنهم (لا يقدرون على شيء من فضل الله) حتى يعطون ويمنعون حسب أهوائهم.
وليكون واضحاً (أن الفضل بيد الله) فقط (يؤتيه من يشاء) ولا راد لمشيئته.
(والله) عز وجل (ذو الفضل العظيم)

* * *

بقلم فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

الحشر

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الحشر: مدينة.
ويقال لها: سورة بني النضير.
والسورة تبين طرفاً من: غدر اليهود، ونكثهم العهود، ووجوب اليقظة لهم، والحذر منهم، وكيفية التعامل معهم.
وهي تبدأ بقوله تعالى:

{ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ }
[الآية : ١]

بداية: تؤكد عزة الله وحكمته، وأن كل ما في الكون يسبح بحمد سبحانه.
وهي في ذات الوقت: تشير إلى عظمة الله من خلال أفعاله مع الكافرين، والمنافقين، والمؤمنين، كما توضحه الآيات التالية.
حيث إن سبحانه.

{ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي المُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ }
[الآية : ٢]

نعم.. هو سبحانه الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب وهم يهود بنوا النضير، الذين كانوا يقيمون بالمدينة، وهموا بقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فطردهم منها، وأجلاهم عنها.
وذلك لأول الحشر أي: لبداية الطرد لهم، والحشر والتجميع في مكان واحد.
حيث: أجلاهم النبي صلى الله عليه وسلم من المدينة إلى خيبر.
ثم: أجلاهم عمر رضي الله عنه من خيبر إلى الشام.
ثم: هم يتجمعون الآن من بلاد العالم في فلسطين.
ما ظننتم أيها المسلمون أن يخرجوا من المدينة؛ لشدة قوتهم، وكثرة عددهم، ومنعة حصونهم.
و قد ظنوا هم أيضاً أنهم مانعتهم حصونهم من أن يخرجهم منها أحد، أو يهزمهم فيها أحد.
فأتاهم الله وهزمهم من حيث لم يحتسبوا ولم يخطر ببالهم.
وذلك: حين حاصرهم النبي صلى الله عليه وسلم، بعد غدرهم به، وجهز نفسه لحربهم وقذف الله في قلوبهم الرعب.
واستسلموا.
ووافق النبي عليه الصلاة والسلام على خروجهم من المدينة بما يستطيعون حملة معهم.
فصاروا يخربون بيوتهم بأديهم حتى لا يستفيد منها المسلمون بعد رحيلهم .
وكذلك أيدي أي: قوة المؤمنين التي كانت السبب في خوفهم منهم، والدافع لهم إلى هذا التخريب الذي فعلوه.
وهكذا..
انهزم اليهود، وانتصر المسلمون.
فاعتبروا بذلك يا أولي الأبصار ولا تخافوهم، ولا تأمنوهم، ولا تعاهدوهم، ولا توالوهم.

* * *

هذا..

{ وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ }
[الآية : ٣]

أي: ولولا أن كتب لله عليهم الجلاء هذه المرة لعذبهم في الدنيا بالقتل والأسر.
ولهم في أي من الحالتين في الآخرة عذاب النار

* * *

{ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ }
[الآية : ٤]

يعني: ذلك الذي نزل بهم وحدث لهم بأنهم شاقوا حاربوا الله ورسوله، وغدروا، ونقضوا العهد، وهموا بقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم.
ومن يشاق الله ويحارب دينه، أو أولياءَه فإن الله له شديد العقاب.

* * *

أيها الأحبة في الله..
هذه هي غزة بني النضير اليهود، وأسبابها.
وللسورة دروس تربوية في التعقيب عليها.
الدرس الأول: لما حاصر المسلمون حصونهم أمر النبي صلى الله بقطع نخيلهم، إهانة لهم، وإرعاباً لقلوبهم، وضغطاً اقتصادياً حربياً عليهم.
فقالوا: لقد كنت تنهي عن الإفساد في الأرض، وهذا إفساد، وداخل بعض المسلمين من ذلك شيء..!!
فأنزل الله تعالى قوله الكريم:

{ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ }
[الآية : ٥]

أي: ما قطعتم خلال حربكم معهم، وحصاركم لهم من لينة نخلة، أو تركتموها قائمة على أصولها دون قطع.
فذلك بإذن الله لكم، تدميراً لاقتصاد أعدائكم، وأيضاً ليخزي ويغيظ هذا الفعل الفاسقين.

* * *

الدرس الثاني: حول غنائم الحرب.
يقول تعالى:

{ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }
[الآية : ٦]

أي: وما أفاء وما رد الله على رسوله منهم أموالاً وغنائم فـــ اعلموا أنكم ما أوجفتم ما أجهدتم في الحصول عليه من خيل ولا ركاب منكم.
ولكن الله يسلط رسله على من يشاء..!!
وقد فعل سبحانه تعالى.
والله على كل شيء قدير
لذلك: فهي للنبي صلى الله عليه وسلم يتصرف فيها كيف يشاء.
وقد فعل صلى الله عليه وسلم، وجعلها في وجوه البر والمصالح التي ذكر الله عز وجل في الآية التالية:

* * *

يقول سبحانه:

{ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ }
[الآية : ٧]

ما أفاء الله أي: جعل ورد على رسوله من أهل القرى التي يفتحها بالحرب، والتي تفتح بعده هكذا فحكمها حكم أموال بني النضير.
يعني: فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل
ويلاحظ: إن اسم الله للتبرك، وسهما النبي صلى الله عليه وسلم وقرابته كانا له في حياته.. صلى الله عليه وسلم.
إذن: الفيء.. لليتامى، والمساكين، وابن السبيل.
وذلك كي لا يكون دولة دائرا بين الأغنياء منكم خاصة، ولا يصل إلى الفقراء منه شيء.

* * *

الدرس الثالث: هذه أحكام الله يجب العمل بها.
إذ يقول ربنا وما آتاكم الرسول وأمركم به فخذوه دون تهاون، فهو خير لكم وما نهاكم عنه فانتهوا ولا تقربوه، فهو خير لكم.
واتقوا الله في السر والعلن إن الله شديد العقاب لمن خالف ورفض، أو عصاه.

وبعد أن بين الله عز وجل مصارف الفيء إجمالاً..!!
أخذ في تفصيل بيان ذلك، في الآيات التالية:
حيث يقول:

{ لِلْفُقَرَاء الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ }
[الآية : ٨]

يعني: يعطي من الفيء الذي أفاء الله على رسوله وحكام المسلمين من بعده من الفتوحات الإسلامية للفقراء المهاجرين

وهؤلاء: وصفهم الله عز وجل بعدة صفات، هي غاية في مدحهم وإعلاء شأنهم.

الأول: الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم بسبب إسلامهم.
الثاني: يبتغون فضلاً من الله رضواناً بحبهم لله وللرسول.
الثالث: وينصرون الله أي دين الله، ويعاونون رسوله.
الرابع: أولئك هم الصادقون في عقيدتهم وسلوكهم.

* * *

أيضاً:

{ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ }
[الآية : ٩]

يعني: يعطي من الفيء الذي أفاء الله على رسوله وحكام المسلمين من بعده من الفتوحات الإسلامية من الفقراء والذين تبوؤا سكنوا الدار دار الهجرة والإيمان من قبلهم أي: اعتنقوا الإسلام من قبل كثير من المهاجرين، وهم فقراء الأنصار.

وهؤلاء: وصفهم الله عز وجل بعدة صفات.. هي غاية في مدحهم كذلك وإعلاء شأنهم.

الأولى: يحبون من هاجر إليهم بإسلامه، وأقام معهم.
الثانية: ولا يجدون في صدورهم حاجة أي تأثر مما أوتوا أي: مما أوتي وأخذ هؤلاء المهاجرون من الأموال والعطايا دونهم.
الثالثة: ويؤثرون يفضلون غيرهم على أنفسهم عند عوزهم ولو كان بهم خصاصة أي: شدة احتياج.
الرابعة: ومن يوق أي: يسلم من شح نفسه وبخلها فأولئك هم المفلحون وهؤلاء الأنصار قد سلموا من شح أنفسهم فأولئك هم المفلحون

* * *

أيضاً:

{ وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلّاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ }

[الآية : ١٠]

يعني: يعطي من الفيء الذي أفاء الله به على رسوله وحكام المسلمين من بعده من الفتوحات الإسلامية للفقراء

والذين جاؤوا من بعدهم أي: من بعد المهاجرين والأنصار وهم: التابعون لهم بإحسان إلى يوم الدين.
وهؤلاء: وصفهم الله عز وجل بعدة صفات هي غاية في مدحهم وإعلاء شأنهم.

الأولى: أنهم يعترفون بالتقصير في حق المولى ويطلبون المغفرة قائلين ربنا اغفر لنا
الثانية: أنهم يدعون بالمغفرة لجميع من سبقهم من المؤمنين و اغفر لإخواننا الذين سبقونا بالإيمان.
الثالثة: أنهم يطلبون صفاء الصدور وسلامة القلوب من أمراضها في حق المؤمنين ولا تجعل يا ربنا في قلوبنا غلا حقداً للذين آمنوا
الرابعة: أنهم يثقون في رأفة الله ورحمته بعبادة، ويرجونها لأنفسهم وللمؤمنين ربنا إنك رؤوف رحيم فارأف بنا وارحمنا.

أيها الأحبة..!!
بعد أن بين الله تبارك وتعالى أنواع المؤمنين، وحكى لنا بعض أقوالهم الطيبة، لنعرفهم، ونحبهم، ونقتفي آثارهم إلى يوم القيامة..!!
يبدأ في بيان بعض أنواع الكافرين، ويحكي لنا طرفاً من أقوالهم الفاسدة الكاذبة، لنعرفهم ونحذرهم إلى يوم القيامة..!!
فيقول سبحانه:

{ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ }
[الآية : ١١]

تحكى هذه الآيات ما دار بين المنافقين في المدينة، وعلى رأسهم عبد الله بن أبي، وبين يهود بني النضير، الذين أرادوا قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم.
حيث قال المنافقون لإخوانهم في الكفر هؤلاء: لا تلينوا لمحمد، ولا تخافوا منه، فنحن معكم عليه.
و لئن أخرجتم من دياركم وطردتم منها لنخرجن معكم
و لئن أمرنا فيكم بشيء نفعله فيكم فلن نفعله، لا نطيع فيكم أحدا أبدا بشيء يضركم.
وإن قوتلتم لنكونن معكم، ولننصرنكم
يقول تعالى: والله يشهد إنهم لكاذبون في كل ما قالوه، إما لعجزهم عن تنفيذ ما يقولون، أو لتبييتهم النية بغير ما يقولون..!!

* * *

لذلك:

{ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ }
[الآية : ١٢]

أي: اليهود لا ينصرون أبدا؛ حيث يقاتلهم مؤمنون.

* * *

يا أيها المؤمنون..

{ لأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَفْقَهُونَ }
[الآية : ١٣]

لأنتم يا مؤمنون، أشد رهبة وإرعاباً في صدورهم أي: هؤلاء المنافقين من الله لتأخر عذابه عنهم.
ذلك الخوف والرعب منكم بسبب بأنهم قوم لا يفقهون ولا يعرفون عظمة الله، ولا يخشونه حق الخشية.

* * *

لذلك.. فإنهم:

{ لاَ يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلاَّ فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ }
[الآية : ١٤]

نعم.. لا يقاتلونكم في أية معركة جميعاً اليهود والمنافقون إلا وهم في قرى محصنة أي: في قلاع وحصون أو من وراء جدر جمع جدار، أي: متاريس يتحصنون بها، ويحاربون من خلفها، كالدبابات والمدرعات والمصفحات، وغير ذلك.
يا أيها المؤمن إنك تحسبهم جميعا أي: متحدون، ومتآلفون، ومتحابون، مع بعضهم البعض.
و الحقيقة.. قلوبهم شتى أي: متفرقة.. فهم في عداء، ولا يجتمعون إلا عليكم.
ذلك الوضع الذي هم فيه.. بسبب أنهم قوم لا يعقلون

* * *

مثلهم أي: اليهود والمنافقون في عدائهم للمسلمين..

{ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيباً ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ }
[الآية : ١٥]

مثلهم كمثل الكفار الذين عادوا المسلمين، وحاربوهم من قبلهم قريبا في يوم بدر، وقد هزموا، وذاقوا وبال أمرهم في الدنيا ولهم عذاب أليم يوم القيامة.
وهؤلاء.. سيهزمون، ويذوقون وبال أمرهم في الدنيا، ولهم كذلك يكون العذاب الأليم يوم القيامة.

* * *

ومثل المنافقين في إغراء اليهود على حرب المسلمين.

{ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ }
[الآية : ١٦]

حيث أغوى الإنسان وتبرأ منه.
وهؤلاء: أغووهم، ووعدوهم بالنصرة ثم تركوهم.

* * *

لذلك يقول سبحانه:

{ فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ }
[الآية : ١٧]

وهو كذلك جزاء كل ظالم.

* * *

وبعد بيان بعض أوصاف الكافرين من اليهود والمنافقين، وعرض صور من أحوالهم: تكون الموعظة والنصيحة الإلهية للمؤمنين..
حيث يقول تبارك وتعالى:

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ * وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ }
[الآيتان : ١٨، ١٩]

ثانياً: يا أيها الذين آمنوا أولاً: اتقو الله في أوامره فلا تخالفوها، وفي شريعته فلا تتركوها، ثانياً: ولتنظر نفس ما قدمت لغد وهو يوم القيامة من عمل فتزيد عليه إن كان صالحاً، وتكف عنه، وتتوب منه إن كان سيئاً.
ثالثاً: واتقوا الله تأكيد على تقوى الله لأهميتها القصوى؛ حيث إن الله خبير بما تعملون.
ثم نهاهم عن الغفلة قائلاً ولا تكونوا في ترككم ذكر الله، وما أمركم به كالذين نسوا الله فلم يذكروه، وتركوا شرع الله فلم يطبقوه فأنساهم بسبب ذلك أنفسهم من العمل الصالح لها.
أولئك الذين نسوا الله هم الفاسقون فلا تكونوا مثلهم.

* * *

حيث:

{ لاَ يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ }
[الآية : ٢٠]

نعم.. لا يستوي أصحاب النار الذين نسوا الله فلم يتقوه وأصحاب الجنة الذين خافوه، فلم يعصوه.
حقاً أصحاب الجنة هم الفائزون بنعيم الله، الناجون من عذابه يوم القيامة.
اللهم أجعلنا منهم يا رب العالمين..

* * *

ولما أمر ربنا بالتقوى بين ما يرشد إليها، ويعين عليها وهو القرآن الكريم.
الذي عظمه قائلاً:

{ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ }
[الآية : ٢١]

أي: أخشعوا واخضعوا وتأثروا واعملوا بكتاب الله؛ حيث إنا لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله..!!
و على كل:
تلك الأمثال والمواعظ نضربها نذكرها ونوضحها للناس جميعاً لعلهم يتفكرون فيها فيزداد المؤمن بها إيماناً، ويقلع الكافر بها عن كفره، ويكف الظالم بها عن ظلمه.

* * *

ولما وصف ربنا القرآن بهذا الوصف العظيم: أتبع ذلك بذكر وصف عظمة من أنزله، وهو الله تعالى فقال عز وجل عن نفسه:

{ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ }
[الآية : ٢٢]

أيضاً:

{هُوَ اللَّهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلاَمُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ }
[الآية : ٢٣]

أيضاً:

{ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ }
[الآية : ٢٤]

نعم.. المصور الذي أعطى كل شيء خلقه وصورته ثم هدى حقاً..
له الأسماء، التسعة والتسعون، الواردة في الحديث الشريف، وهي الأسماء الحسنى، الدالة على صفاته العلى، سبحانه.
ثم تختم السورة بما بدأت به..
حيث يقول ربنا جل وعلا:

وبهذا.. انتهت سورة الحشر، أو سورة بني النضير.

* * *

بقلم فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

الجمعة

بسم الله الرحمن الرحيم

وهي سورة: مدنية.
تبدأ بقوله تعالى:

{يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ }
[الآية : ١]

أي: يسبح لله الملك القدوس، المنزه عن النقائص، المتصف بصفات الكمال كل ما في السماوات وما في الأرض من جميع المخلوقات ناطقها وجامدها.

* * *

هذا الإله..

{ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ }
[الآية : ٢]

هو سبحانه الذي بعث في الأميين وهم العرب الذين لم ينزل إليهم كتاب سماوي سابق رسولاً منهم يعرفونه، ويعرفون نسبه وأمانته.
وذلك: لـــيتلوا عليهم آياته سبحانه، وهي القرآن، وليعرفوا ربهم فيؤمنوا به، ويخضعوا له.
ويزيكيهم يطهرهم من الشرك، وسيء الأخلاق؛ ليحملوا أشرف رسالة إلى الدنيا كلها.
ويعلمهم الكتاب والحكمة أي: ما في الكتاب مما يصلح شأنهم، ويعلي قدرهم، والحكمة في تعاملاتهم؛ ليقودوا الدنيا وأهلها إلى كل خير وفضيله.
وإن كانوا من قبل هذه الرسالة، ومجيء محمد صلى الله عليه وسلم إليهم لفي ضلال كفر وجهل مبين

* * *

يقول سبحانه:

{ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ }
[الآية : ٣]

أي: و قد بعثه الله أيضاً إلى آخرين منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة لما يلحقوا بهم أي: لم يأتوا بعد، وهم كل من جاء بعد جيل الصحابة إلى يوم القيامة.

وهو سبحانه العزيز الحكيم في كل ما يقضي به ويقدره.

* * *

{ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ }
[الآية : ٤]

يعني: ذلك العطاء لمحمد صلى الله عليه وسلم، والإنعام بنبوته لعموم الدنيا كلها إلى يوم القيامة فضل الله يؤتيه ربنا من يشاء وقد أعطاه عز وجل لمحمد صلى الله عليه وسلم.
والله سبحانه ذو الفضل العظيم

* * *

ثم يحث ربنا عباده على وجوب حسن اتباع هذا القرآن، وضرورة الامتثال لهذا النبي الكريم.
وذلك: بذكر تقصير من قبلهم، في حق كتابهم ونبيهم، والحط... بسبب هذا التقصير من شأنهم.
حيث يقول:

{ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ }
[الآية : ٥]

يقول تعالى وهو يذم اليهود الذين أعطوا التوراة وحملوها للعمل بها، ولكنهم لم يعملوا بها، بل فرطوا فيها، وحرفوها وبدلوها
مثلهم في ذلك كمثل الحمار الذي يحمل أسفاراً وهو لا يدري ما فيها.
حقاً.. بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله فحملوها ولم يعملوا بها، مثلاً.
وقد ظلموا بذلك.
والله لا يهدي القوم الظالمين
وفي هذا ــ أيها الأحبة في الله ــ لفت نظر لهذه الأمة ألا تكون مثل اليهود: تحمل القرآن، ولا تعمل به.

* * *

ثم يأمر الله محمداً أن يخاطب هؤلاء اليهود
قائلاً:

{ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ }
[الآية : ٦]

لما قال اليهود نحن أبناء الله وأحباؤه، وادعوا أن الدار الآخرة لهم خاصة إلى غير ذلك.

قال تعالى لحبيبه قل لهم؛ كشفاً لكذبهم إن زعمتم أنكم أولياء الله وأحباؤه من دون الناس جميعاً: فتمنوا الموت أي: تمنوا على الله أن يميتكم سريعاً، وينقلكم إلى دار كرامته ونعيمه.
وذلك إن كنتم صادقين في أنكم أولياء الله وأحباؤه!

* * *

ولو قلت لهم ذلك فلن يفعلوا.

{ وَلاَ يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ }
[الآية : ٧]

حقاً إنه لم يحدث؛ ولن يحدث أبداً؛ إذن فهم ظالمون، والله عليم بالظالمين يعاقبهم على ظلمهم.

* * *

أنبهم يا محمد على فرارهم من الموت، وعدم استعداهم بالإيمان له، وخوفهم منه..

{ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ }
[الآية : ٨]

قل لهم: لا مهرب لكم من الموت، الذي تردون بعده وتعودون إلى الله؛ فيجازيكم على ما كنتم تعملون.

* * *

وبعد ضرب هذا المثل الذي يستخرج الأمة الإسلامية من غفلتها، ويوقظها من سباتها.
يعود الخطاب إلى المؤمنين.
فيقول سبحانه:

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ }
[الآية : ٩]

يعني: إذا نودي بالآذان للصلاة من يوم الجمعة لعبادته سبحانه فاسعوا أي: فامضوا واذهبوا إلى ذكر الله من خطبة وصلاة وذروا البيع وكل شواغل الدنيا في هذه الساعة.
ذلكم السعي إلى ذكر الله خير لكم من البيع والشراء، والانشغال بأمور الدنيا كلها.
إن كنتم تعلمون ذلك، فاستجيبوا.

* * *

{ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ }
[الآية : ١٠]

فإذا قضيت الصلاة وتم بحمد الله أداؤها فانتشروا إذا أردتم في الأرض دون حرج وابتغوا اطلبوا ما تحبون من فضل الله رزقاً، أو علما، أو راحة، أو أي شيء آخر.
و لا تغفلوا عن طاعة الله في أي من هذه الأغراض، بل اذكروا الله ذكراً كثيراً في كل أحوالكم، واشكروه على إنعامه الدائم المتواصل عليكم.
لعلكم تفلحون في دنياكم وأخراكم.

* * *

ذات مرة أيها الكرام، والنبي صلى الله عليه وسلم يخطب على المنبر: وصلت قافلة التجارة، وفرح الناس بوصولها، ولم يتمالك بعض المسلمين نفسه من شدة اللهفة على تجارته فيها، فقام، وخرج من المسجد،وذهب لأمواله فيها.
فعاتب الله المسلمين على ذلك بقوله:

{ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِماً قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ }
[الآية : ١١]

أي: ما عند الله من الثواب خير من اللهو وأرباح التجارة خاصة والله خير الرازقين لمن توكل عليه، وطلب الرزق دون إخلال بضوابطه الشرعية.
ولم يعد المسلمون بعدها إلى هذا التصرف.
والآية كما هو واضح فيها التحذير لكل من يفضل لهواً أو تجارة، أو عملاً، على الاستماع للخطبة وصلاة الجمعة.

* * *

وبعد ضرب هذا المثل الذي يستخرج الأمة الإسلامية من غفلتها، ويوقظها من سباتها.
يعود الخطاب إلى المؤمنين.
فيقول سبحانه:

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ }
[الآية : ٩]

يعني: إذا نودي بالآذان للصلاة من يوم الجمعة لعبادته سبحانه فاسعوا أي: فامضوا واذهبوا إلى ذكر الله من خطبة وصلاة وذروا البيع وكل شواغل الدنيا في هذه الساعة.

ذلكم السعي إلى ذكر الله خير لكم من البيع والشراء، والانشغال بأمور الدنيا كلها.
إن كنتم تعلمون ذلك، فاستجيبوا.

* * *

{ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ }
[الآية : ١٠]

فإذا قضيت الصلاة وتم بحمد الله أداؤها فانتشروا إذا أردتم في الأرض دون حرج وابتغوا اطلبوا ما تحبون من فضل الله رزقاً، أو علما، أو راحة، أو أي شيء آخر.
و لا تغفلوا عن طاعة الله في أي من هذه الأغراض، بل اذكروا الله ذكراً كثيراً في كل أحوالكم، واشكروه على إنعامه الدائم المتواصل عليكم.
لعلكم تفلحون في دنياكم وأخراكم.

* * *

ذات مرة أيها الكرام، والنبي صلى الله عليه وسلم يخطب على المنبر: وصلت قافلة التجارة، وفرح الناس بوصولها، ولم يتمالك بعض المسلمين نفسه من شدة اللهفة على تجارته فيها، فقام، وخرج من المسجد،وذهب لأمواله فيها.
فعاتب الله المسلمين على ذلك بقوله:

{ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِماً قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ }
[الآية : ١١]

أي: ما عند الله من الثواب خير من اللهو وأرباح التجارة خاصة والله خير الرازقين لمن توكل عليه، وطلب الرزق دون إخلال بضوابطه الشرعية.
ولم يعد المسلمون بعدها إلى هذا التصرف.
والآية كما هو واضح فيها التحذير لكل من يفضل لهواً أو تجارة، أو عملاً، على الاستماع للخطبة وصلاة الجمعة.

* * *

بقلم فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

التغابن

بسم الله الرحمن الرحيم

{ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }
[الآية : ١]

هذه هي بداية سورة: التغابن، المدنية.. التي تركز على تعريف الناس حقيقة الإيمان، وتوجه إلى أمور ينبغي أن يعيها ويطبقه المؤمنون.
والآية تفيد: أن كل ما في الكون يسبح تنزيها لله تعالى الذي له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير
ومن كان كذلك: يجب الإيمان به سبحانه.

* * *

وأنه:

{ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ }
[الآية : ٢]

أي: خلقكم فمنكم من أحب الكفر وكفر، فهو كافر ضال، ومنكم من أحب الإيمان وآمن، فهو مؤمن مهتد.
والله بما تعملون وتختارون من الكفر أو الإيمان بصير وسيحاسبكم على هذا الاختيار، والفعل المترتب عليه.
ومن كان كذلك: يحب الإيمان به سبحانه.

* * *

كما أنه سبحانه:

{ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ المَصِيرُ }
[الآية : ٣]

نعم خلق سبحانه السموات والأرض بالحكمة البالغة وصوركم بقدرته في أحسن صورة وأكملها وأبدعها.
وإليه المصير فأحسنوا أعمالكم وسرائركم، كما أحسن صوركم..!!
ومن كان كذلك: يجب الإيمان به سبحانه.

* * *

كما أنه تبارك وتعالى:

{ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ }
[الآية : ٤]

لاحظوا أيها الكرام: كل واحدة من هذه الثلاث في الآية.. أدق وأخص مما قبلها.
وذكرها رب العزة كلها: للإشارة إلى أن علمه سبحانه محيط بكل صغيرة وكبيرة، ولا يغيب عنه شيء أبداً.
ومن كان كذلك يجب الإيمان به سبحانه.

* * *

وبعد هذا التقرير..
يوبخ الله البشر على تقاعسهم عن الإيمان، وواجباته..
إذ يقول سبحانه:

{ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ }
[الآيتان : ٥، ٦]

يعني: ألم يأتكم وتعلموا يا كفار مكة، ويا كفار العالم نبأ خبر الذين كفروا بالله ورسوله من قبل وما حدث لهم عندما أصروا على كفرهم..؟
فذاقوا وبال أمرهم عاقبة كفرهم في الدنيا.
ولهم في الآخرة عذاب أليم فوق هذا
ذلك العقاب والعذاب بأنهم كانت تأتيهم رسلهم من الله بالبينات الدلائل الواضحات.. يدعونهم إلى الإيمان بالله فقالوا أي: أهل الكفر أبشر يهدوننا واستكبروا عليهم.
فكفروا بالرسل وتولوا أعرضوا عن الإيمان.
واستغنى الله.. عنهم والله غني عن جميع خلقه حميد وإن لم يحمده أحد.

* * *

وبعد هذا الكفر بالرسل، والإعراض عن الإيمان..

{ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ }
[الآية : ٧]

يبين ربنا عز وجل عن الكافرين أنهم ينكرون البعث، والحساب.
ثم يقول لحبيبه قل لهم بلى تبعثون وربي وتحاسبون، ثم لتنبؤن بما عملتم من الجليل والحقير، والصغير والكبير.
وذلك على الله يسير

* * *

وعلى ذلك:

{ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ }
[الآية : ٨]

أي: ما دمتم ستبعثون، وتحاسبون فآمنوا بالله تعالى ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم والنور الذي أنزلنا معه لهدايتكم، وهو القرآن.
والله بما تعملون خبير حيث لا تخفي عليه من أعمالكم خافية، وسيحاسبكم، وسيجازيكم.

* * *

تقولون: متى..؟

{ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ }
[الآيتان : ٩ ، ١٠]

نعم.. يوم القيامة يجمعكم الله جميعاً ليوم الجمع الذي يجمع فيه الأولون والآخرون كلهم في صعيد واحد.
ذلك اليوم هو يوم التغابن الذي يغبن فيه المؤمنون الكافرين حيث ربح المؤمنون الجنة،وخسرها الكافرون.
و هكذا مَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ
و أما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا وعاندوا رسلنا،
فـــ أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير

* * *

وبعد أن عرفتنا السورة ـــ يا أحباب رسول الله صلى الله عليه وسلم ـــ على الله عز وجل، وضرورة الإيمان به..
تبين لنا أن كل ما يقع لنا ويحدث هو بأمر الله تعالى.
حيث تقول الآية:

{ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ }
[الآية : ١١]

أي: ما أصاب المرء، ووقع له من مصيبة بمرض، أو شدة، أو فقد عزيز، أو ضياع مال إلا بإذن الله بعلمه وتقديره، ومشيئته.
و أنه من يؤمن بالله وأن المصيبة بقضائه، ويرض بها يهد قلبه للصبر عليها، والثواب بسببها، وإلى كل خير.
والله بكل شيء عليم فآمنوا به، وسلموا إليه كل أموركم.

* * *

{ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ }
[الآية : ١٢]

يعني: وأطيعوا الله في أوامره ونواهيه، وتطبيق شرعه وأطيعوا الرسول بطاعة شخصه في حياته، واتباع سنته بعد وفاته.
فإن توليتم وأعرضتم عن هذه الطاعة: فلا ضرر إلا عليكم فإنما على رسولنا البلاغ المبين وقد أداه.

* * *

يا محمد، ويا كل داع إلى الله..!!

{ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ }
[الآية : ١٣]

نعم الله لا إله إلا هو عليه التوكل في كل الأمور
و لذلك على الله فليتوكل المؤمنون لا على غيره، ويعتمدون عليه لا على غيره.
وفي هذا التشجيع للرسول على البلاغ، وللدعاة على نشر هذه الدعوة.

* * *

ويعد هذا التوضيح للإيمان، والدعوة إليه؛ الموجهة إلى جميع البشر..!!
يحذر الله المؤمنين من بعض العقبات التي تكون في طريق الإيمان..
فيقول سبحانه:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ }
[الآيتان : ١٤، ١٥]

يا أيها الذين آمنوا انتبهوا..
حيث إن من أي: بعض أزواجكم وأولادكم من يكون عدوا لكم
ولكن كيف يكون ذلك..؟
يكون بالإنشاغل به عن طاعة الله والعمل الصالح، أو طاعته في عدم الإنفاق في سبيل الله، أو عدم صلة الأرحام مثلاً.
لذلك يقول الحكيم الخبير:
فاحذروهم على دينكم؛ ولا تجعلونهم يضلونكم عن الطريق الصواب، أو يحببونكم في الدنيا وينسونكم الآخرة، أو يشجعونكم على الفساد والحرام.
و لو أنهم حالوا: فما دوركم..؟
يقول ربنا..
إن تعفوا عنهم وتصفحوا فلا توبخوهم وتغفروا

فتستروا ذنوبهم ولا تفضحونهم: فهو أولى؛ لعلهم يهتدون فإن الله لو فعلتم ذلك؛ مرضاة له، ودعوة لهم غفور لذنوبكم أنتم رحيم لكم يكفر عنكم سيئاتكم.
إنما أموالكم وأولادكم أيها المؤمنون فتنة لكم، وإبتلاء واختبار من الله تعالى؛ ليعلم من يطيعه ممن يكون له عاصياً.
و اعلموا أن الله عنده أجر عظيم من منافع الأموال والأولاد، التي تلهيكم عن طاعته فانتبهوا..!!
وعلى ذلك:

{ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْراً لأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ }
[الآية : ١٦]

فاتقوا الله باتباع أوامره، واجتناب نواهيه ما استطعتم أي: جهدتم وقدر طاقتكم.
واسمعوا ما توعظون به سماع تدبر.
وأطيعوا فيما تؤمرون به، وتنهون عنه.
وأنفقوا في الطاعة خيراً لأنفسكم من الأموال والأولاد.
ومن يوق شح نفسه بعدم البخل بالزكاة، والصدقات الواجبة، والإنفاق في الطاعات ووجوه الخير فأولئك هم المفلحون الفائزون برضوان الله.

* * *

ثم يشجع ربنا على هذا الإنفاق فيقول:

{ إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ * عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ }
[الآيتان : ١٧، ١٨]

يا أيها الذين آمنوا إن تقرضوا الله أي: تنفقوا في سبيل الله قرضاً حسنا نفقة طيبة عن طيب خاطر، ورضى نفس:
يضاعفه لكم ثواباً وجزاء، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف.
ويغفر لكم ذنوبكم أيضاً.
والله عز وجل شكور يقبل القليل، ويجزي عليه بالكثير العظيم حليم يقبل التوب ويغفر الذنب.
خاصة.. أنه سبحانه:
عالم الغيب ما استقر في القلوب والشهادة ما ظهر، ورأته العيون.
وهو العزيز في ملكه الحكيم في صنعه، سبحانه.

* * *

بقلم فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

التحريم

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة مدنية.
وهي تبدأ بقوله عز وجل:

{ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ }
[الآية : ١]

روى في سبب نزول الآيات الخمس الأول من هذه السورة..
أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحب شرب العسل، وبالذات عند زوجته أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها.
وأصابت الغيرة زوجتيه حفصة وعائشة رضي الله عنهما، فاتفقتا على أن تقول له من يدخل عليها منهن بعد شربه العسل: إني أجد منك ريحاً غير طيبة، حتى لا يشربه عندها بعد ذلك.
وحدث أن شرب صلى الله عليه وسلم، ثم دخل بعدها على حفصة رضي الله عنها: فقالت له ما قد عرفنا.
وأراد صلى الله عليه وسلم أن يطيب خاطراً: فحلف لا يشربه مرة أخرى، وطلب منها أن لا تخبر أحداً بذلك.
ولكنها.. أخبرت بعد ذلك عائشة.
فنزلت هذه الآيات.
وهناك رواية أخرى تفيد أن الذي حرمه النبي صلى الله عليه وسلم هي جاريته ماريه القبطية.
والروايتان صحيحتان.
ويبدو أنهما حدثا في فترات متقاربة، قبل نزول الآيات.
وكل واحد من الرواة ذكر ما وصل إلى علمه على أنه سبب نزول الآيات، كما يقول الإمام الآلوسي عليه رحمه الله.
وتعالوا بنا الآن إلى تفسير الآيات.
يا أيها النبي خطاب إلهي للحبيب صلى الله عليه وسلم بصفته النبوة لم تحرم على نفسك ما أحل الله لك من شرب العسل أو وطء الجارية.
تبتغي تطلب بذلك مرضاة أزواجك وأنت تعلم أن التحليل والتحريم لا يكون إلا لله فقط.
على أية حال قد غفر الله لك ما فعلت والله غفور رحيم وأعلم جيداً أنه..

{ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ }
[الآية : ٢]

نعم قد فرض الله وشرع لكم تحلة أيمانكم التي حرمتم بها، وذلك بكفارة اليمين.
فأطيعوا الله ولا تخالفوا أحكامه والله مولاكم يأمركم بما فيه نفعكم وصالحكم.
وهو سبحانه العليم بما يصلحكم الحكيم فيما يشرعه لكم.

* * *

ثم يكون تفصيل الموضوع.. بقوله تعالى:

{ وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثاً فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ }
[الآية : ٣]

و اذكر وتعلم أيها المؤمن إذ أسر النبي صلى الله عليه وسلم إلى بعض أزواجه وهي السيدة حفصه رضي الله عنها حديثاً وهو موضوع تحريم شرب العسل أو وطء الجارية، وطلب منها أن يكون هذا الموضوع سراً بينهما فلا تخبر به أحداً.

ولكنها رضي الله عنها لم تحتفظ بهذا السر.

فلما نبأت وأخبرت به السيدة عائشة رضي الله عنها:

عرف الله حبيبه صلى الله عليه وسلم ما دار بينهما وأظهره الله عليه بتفاصيله.

وهنا: كلم النبي صلى الله عليه وسلم السيدة حفصه أنها أفشت السر، ومن أدبه صلى الله عليه وسلم أنه عرف لها مما دار بينهما بعضه وأعرض عن بعض فلم يذكره، من باب الستر، وعدم الضغط على الأعصاب.

فلما نبأها به تعجبت؛ حيث لم يخبره أحد منهما.

لذلك قالت له من أنبأك وعرفك هذا الذي دار بيننا؟

قال لها صلى الله عليه وسلم نبأني ربي العليم الخبير سبحانه.

* * *

ثم قال تعالى لهما:

{ إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ }
[الآية : ٤]

دعوة إلى التوبة إن تتوبا إلى الله عما حدث منكما من هذا التدبير الذي فعلتماه فقد صغت واستمعت واستجابت قلوبكما لأمر الله، وقبل الله توبتكما.

و أما إن تظاهرا عليه بسبب الغيرة، في إفشاء سره، وعمل ما يسوؤه: فلن يكون لكما أدنى تأثير عليه.. فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ومع كل هؤلاء ظهير له ونصير.

* * *

كما أنه إن لم تتوبا، وتتظاهرا عليه..

{ عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَاراً }
[الآية : ٥]

أي: فإنه يطلقكن. وعسى ربه سبحانه إن طلقكن في هذه الحالة أن يبدله أزواجاً له خيراً منكن إذّ لن تكن حينئذ من زوجاته، من أمهات المؤمنين.

وهؤلاء الزوجات الجديدات سيكن..
مسلمات مسلمات لله ولرسوله.
مؤمنات واثقات مخلصات.
قانتات مطيعات.
تائبات راجعات في كل أمورهن لله ولرسوله.
عابدات لله بجميع أصناف العبادة.
سائحات صائمات.
ثيبات كن زوجات للغير قبل ذلك.
وأبكاراً لم يتزوجن من قبل.
وهذه هي الصفات التي ينبغي أن يفطن لها المربون وأولياء الأمور في تربية المرأة المسلمة.

* * *

وبعد ذكر هذه الصفات الطيبة للمرأة المسلمة: يهيب الله بالمؤمنين أن ينتبهوا إليها، وأن يربوا بيوتهم عليها.
إذ يقول سبحانه:

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ }
[الآية : ٦]

يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً بترككم المعاصي، وفعلكم الطاعات وأهليكم عن المعاصي، وأمرهم بالطاعات وتربيتهم على حب الله ورسوله.
هذه النار وقودها الناس والحجارة
كما أن عليها ملائكة غلاظ شداد يعذبون من فيها، وهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون به

* * *

وهذه النار: هي التي يدخلها الكافرون.
وهي التي: يقال لهم عند دخولها

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ }
[الآية : ٧]

أي: لا تعتذروا لأنه لا يقبل منكم اعتذار، وأنتم اليوم تجزون بأعمالكم.

* * *

ولأن طريق الوقاية من النار هو التوبة: فإن الغفور الرحيم يطالب المؤمنين بالتوبة قائلاً:

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحاً عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يَوْمَ لاَ يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }
[الآية : ٨]

أي: توبوا إلى الله توبة نصوحاً صادقة.
عسى ربكم أن تبتم توبة نصوحاً أن يقبل توبتكم، ويكفر أي: يمحو عنكم جزاء سيئاتكم التي كانت منكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار.
وذلك: يوم القيامة يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه.
بل يكون نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يضئ طريقهم إلى جنات النعيم.
وهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير.

* * *

وإذا كان رب العزة قد أمر المؤمنين بوقاية أنفسهم وأهليهم من النار وعذابها..!!
وإذا كان تعالى ــ أيضاً ــ قد أمرهم بالتوبة تطهيراً لهم من سيئاتهم التي قد تقودهم إلى النار..!!
فإن هناك فريقاً من الناس لا يعنيهم وقاية أنفسهم ولا أهليهم من عذاب النار، كما أنهم لا يتوبون عن معاصيهم، بل يصرون على اقترافها ويعيثون في الأرض فساداً.
هؤلاء: يجب جهادهم حماية للأمة من إفسادهم، وللبلاد من تخريبهم.
حيث يقول تعالى:

{ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ }
[الآية : ٩]

أي: جاهدهم إعلاما لهم بالدين، ومنعاً لهم من الفساد والإفساد وأغلظ عليهم لا تتهاون معهم.
فإن آمنوا، وتابوا.. فبها ونعمت.
وإن لم يؤمنوا فلا تحزن عليهم، فقد اختاروا طريق السوء ومأواهم جهنم وبئس المصير

* * *

أيها الأحبة...
صدر هذه السورة: كان في عتاب وتأديب اثنتين من زوجات رسول الله صلى الله عليه وسلم.
وقد كان درساً لجميع المسلمين رجالاً ونساءً في ضرورة الالتزام بحدود الله وشرعه.
إذّ في ذلك النجاة والفلاح.
لذلك تختم السورة بضرب المثل الذي يوضح ويؤكد للدنيا كلها أن اللجوء إلى الله والعمل بشرعه: هو حبل النجاة، ومن ابتعد بعد عن مرضاته سبحانه.
إذ يقول جل وعلا في مثل من ابتعد عن ربه.

{ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ }

[الآية : ١٠]

نعم.. ضرب الله مثلاً للذين كفروا يتعظ به المؤمنون، وينتفع به الغافلون وهو أن امرأة نوح وامرأة لوط كانتا زوجتين تحت عبدين من عبادنا صالحين نبيين رسولين، يدعوان الناس إلى الإيمان بالله وتوحيده.

فخانتاهما هاتان الزوجتان، ولم تؤمنا بما جاءا به، بالرغم من هذه المخالطة والمعاشرة.

فلم يغنيا عنهما كونهما زوجتين لنبيين من غضب الله عليهما شيئا حيث غضب عليهما.

وقيل لهما ادخلا النار مع الداخلين من الكافرين والمنافقين.

وبذلك لم يستفيدا من القرب والقرابة للصالحين.

كما يقول جل وعلا في مثل من أرضى ربه واحتمى بجنابه:

{ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ }

[الآيتان : ١١ ، ١٢]

نعم.. وضرب الله مثلاً للذين آمنوا يسيرون على هديه، وذلك بامرأتين صالحتين هما: امرأة فرعون الذي كان أطغى أهل الأرض إذ قالت متبرأة مما هي فيه من بريق سلطان الظالم، ومتاع الدنيا وزخرفها، رافضة لكل ذلك طالبة من ربها ثلاثة أشياء:

أن يبني الله لها عنده بيتاً في الجنة ويلاحظ أنها قد اختارت الجار قبل الدار؛ حيث اختارت رضوان الله قبل جنته، ولم تفتن بما هي فيه أن يخلصها الله من فرعون، ويبعد عنها نتائج عمله.

أن يخلصها ــ كذلك ــ من قوم فرعون، بسبب ظلمهم وبغيهم.

الثانية: مريم ابنة عمران، أم عيسى عليه السلام.

وقد وصفها ربها بثلاث صفات في قوله:

ومريم ابنة عمران التي

أحصنت حفظت فرجها وصانته فنفخنا فيه من روحنا

وصدقت بكلمات ربها وكتبه أي: بشرائعه، وقضائه وقدره، وكتبه التي أنزلها على رسله.

وثالثاً كانت من القوم القانتين الطائعين لربهم.

* * *

بقلم فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

الحاقة

بسم الله الرحمن الرحيم

هي: سورة مكية
تبدأ بقوله تعالى:

{ الْحَاقَّةُ * مَا الْحَاقَّةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ }
[الآيات : ١–٣]

مطلع قوي.. بهذا الحرّ، ويؤثر في الكيان كله.
والحاقة اسم من أسماء يوم القيامة، ومعناه: الواجبة أي الواجبة الوقوع.
وكأن سائلاً يسأل: ما الحاقة..؟
فيكون الجواب: تفخيم بعد تفخيم، وتعظيم لشأن هذا اليوم بعد تعظيم.. وما أدراك ما الحاقة.
أي: ما أعلمك بها، إنها شيء لا تبلغه المفاهيم، ولا تحيط به الأوهام، إنها وما فيها فوق كل تصور وإدراك.
ومادام الأمر كذلك: فلا تنشغل بما هيتها، بل آمن بها واجعل شغلك الشاغل هو الاستعداد لها بالعمل الصالح.
وإياك والإهمال لها، أو التكذيب بها..!!

* * *

حيث:

{ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ }
[الآية : ٤]

نعم.. كذبت ثمود قوم صالح عليه السلام وعاد قوم هود عليه السلام بالقارعة وهي الحاقة وهي يوم القيامة، التي تقرع الناس وتفزعهم بأهوالها.

* * *

أتدري أيها القارىء الكريم: ماذا حدث لهم، عندما كذبوا بها، ولم يستعدوا بالعمل الصالح لها..؟

{ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ }
[الآية : ٥]

أي: لما كذبوا بها أهلكهم الله تعالى بالطاغية وهي: الصيحة التي أسكنتهم، والزلزلة التي دمرتهم.

* * *

{ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ * فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ }
[الآيات : ٦–٨]

أي: لما كذبت عاد بالحاقة، وهي القارعة، وهي القيامة: أهلكها الله بريح صرصر شديدة الصوت، شديدة البرودة عاتية شديدة الهبوب، مدمرة، لا رحمة فيها.
وقد سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً
أي: متتابعات.
و كنت ترى القوم وهم عاد فيها أي: هذه الكارثة التي حلت بهم لتكذيبهم صرعى هالكين، مطروحين أرضاً كأنهم أعجاز نخل خاوية أصول شجر نخل فارغة ساقطة..!!
فهل ترى لهم من باقية..؟
أبداً لقد هلكوا جميعاً، وبادوا عن آخرهم، ولم يبق منهم أحد.

* * *

أيضاً..

{ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ * فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً }
[الآيتان : ٩، ١٠]

أي: وجاء فرعون مصر ومن قبله من الأمم الكافرة والمؤتفكات وهي أهل قرى قوم لوط جاء كل هؤلاء: بالفعلة الخاطئة..!!
تسألني.. ما هذه الفعلة الخاطئة التي فعلوها..؟
أقول لك:
يقول ربنا سبحانه فعصوا أي: كل أمة منهم عصت رسول ربهم أتدرون.. ماذا كانت نتيجة عصيانهم هذا..؟
يقول المولى فأخذهم أخذة رابية أي أهلكهم إهلاكة شديدة، تناسب قبح أفعالهم ومعاصيهم.

* * *

وكذلك: مع قوم نوح عليه السلام.

{ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ * لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ }
[الآيتان : ١١، ١٢]

أي: لما كذب قوم نوح نوحاً عليه السلام، ودعا ربه قائلاً:
أني مغلوب فانتصر..
وأجاب الله دعآءه حيث يقول ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر* وفجرنا الأرض عيوناً * فالتقى الماء على أمر قدر
وكان الفيضان..!!
وطغى الماء على كل شيء.
وكان إنعام الله على المؤمنين؛ حيث يقول حملناكم أي: آباءكم في هذه السفينة الجارية
وكان ذلك: الإهلاك للمكذبين، والإنجاء للمؤمنين لنجعلها لكم تذكرة باقية على مر الزمان وتعيها أذن واعية فتؤمن بالله، ولا تكذب الرسل، وتستعد بالعمل الصالح لليوم الآخر.

* * *

نعم.. لليوم الآخر..
الذي هو يوم القيامة.
الذي هو الحاقة.
أتريدون أيها الكرام معرفة بعض ما يحدث فيه..؟
إذن تعالوا معنا إلى قول العزيز الحكيم:

{ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ * وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً * فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ * وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ * وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ }
[الآيات : ١٣-١٧]

يا ألله..!!
يا منجي يا رب.. من هذه الأهوال الفظيعة..!!
فإذا نفخ في الصور النفخة الثانية، وهي نفخة البعث، نفخة واحدة آه.. ما أشد صوتها.
وحملت وقعت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة فصارتا كثيبا مهيلا، وتبدلت الأرض غير الأرض.
فيومئذ وقعت الواقعة أي: قامت القيامة.
وانشقت السماء وتصدعت فهي يومئذ واهية ضعيفة ساقطة، بعد أن كانت سقفاً محفوظاً متماسكاً، قوياً.
و يكون الملك أي: الملائكة على أرجائها أي: طوفها وأطرافها.
ويحمل عرش ربك فوقهم أي: فوق هؤلاء الملائكة يومئذ ثمانية ملائكة.

* * *

أين نحن والناس حينئذ..؟

والجواب:

{ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ }
[الآية : ١٨]

نعم.. يومئذ تعرضون للسؤال والحساب؛ حيث لا تخفي منكم على العباد خافية من أموركم وأفعالكم التي كانت منكم في الدنيا.

* * *

أيها الأحبة في الله..
هذا يوم الحساب والجزء إذن..!!
تسألني.. ما حال المؤمنين يومئذ..؟
الجواب.. يقول رب العزة عنهم:

{ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ * إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَهْ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ }
[الآيات : ١٩-٢٤]

نعم.. إنهم في سعادة وسرور.
حيث إن الواحد منهم بعد أن أوتي كتابه بيمينه وصار من أهل اليمين يقول لأصحابه هاؤم اقرأوا كتابيه لتعرفوا كرم الله بي، وإنعامه علي، وتبديله السيئات حسنات.
أتعرفون لماذا هذا.
إني ظننت علمت وأنا في الدنيا أني ملاق حسابيه كما أخبر رسول الله، وأمنت بذلك، وبذلت الجهد في العمل الصالح؛ استعداداً لهذا اليوم.
وهكذا: صار حال المؤمن
فهو في عيشة راضية * في جنة عالية * قطوفها دانية يقال لهم كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم وقدمتم في الأيام التي سبقت وأنتم في الدنيا.

* * *

أسمع من يسأل.. وما حال الكافرين يومئذ..؟
الجواب.. لقول رب العزة عنهم:

{ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ * يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ * مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ }
[الآيات : ٢٥-٢٩]

يا ألله..!!
إنهم في بؤس وشقاء
حيث إن الواحد منهم بعد أن أوتي كتابه بشماله ورأى ما فيه من المخازي والفضائح والسيئات يتحسر ويندم ندماً لا يفيد.
فيقول محاولاً إخفاء كتابه يا ليتني لم أوت كتابيه * ولم أدر ما حسابيه
ولكن يفتضح أمره وأمر كتابه على رؤوس الخلائق..!!
فيقول يا ليتها أي: الميتة التي متها كانت القاضية ولم أبعث بعدها.
ولكنه الآن بعث، وانتشرت فضائحه، وصار يعاني آلام العذاب..!!
فيقول متحسراً ما أغنى عني ماليه لم ينفعني كل ما جمعته في الدنيا، مع كفري وعصياني، كما أنه هلك عني سلطانيه ضاع الجاه والسلطان والنفوذ، وصرت وحيداً ذليلاً معذباً.

* * *

وهنا يقال لملائكة العذاب:

{ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ }
[الآيات : ٣٠-٣٢]

خذوه فغلوه أي: خذوه بعنف، مقيد اليدين إلى العنقثم الجحيم صلوه أدخلوه وأغمروه فيها مرة ثم أعيدوه واربطوه في سلسلة يربط فيها من هم على شاكلته ذرعها طولها سبعون ذراعاً وهو مقدار لا يعلمه إلا الله فاسلكوه أدخلوه في هذه السلسلة ثم ألقوا به في النار.

* * *

يا مغيث..!!

لم كل هذا.

{ إِنَّهُ كَانَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ * وَلا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ * فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ * وَلا طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ * لا يَأْكُلُهُ إِلاَّ الْخَاطِئُونَ }
[الآيات : ٣٣-٣٧]

يعني: سبب كل هذا العذاب أنه: كان متمرداً على الله، متكبراً على الخلق.
حيث إنه كان لا يؤمن بالله بالعظيم فلم يطعه، ويلتزم بشرعه.
كما أنه كان لا يحض على طعام المسكين بخيلاً بمال الله على خلق الله، لا يحسن إلى الناس.
وبذلك: أضاع حقوق العباد عليه، وحقوق رب العباد أيضاً ولذلك:
فليس له اليوم ههنا صديق حميم يدفع عنه شيئاً من هذا العذاب.
و كذلك لا طعام له ههنا إلا طعام من غسلين وهو ما يسيل من دماء وصديد أهل النار.
هذا الطعام السيئ لا يأكله إلا الخاطئون وهو منهم.

* * *

يا أيها الناس.
هل عرفتم أن الحاقة، وهي القيامة.. حق ..!!؟
وهل آمنتم باليوم الآخر..!!؟
فهل تستعدون له بالإيمان والعمل الصالح..؟!!
وهل تعظمون القرآن الكريم الذي جاءت فيه أخبار هذا اليوم..؟!!
حيث يقول ربنا سبحانه عنه:

{ فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لا تُبْصِرُونَ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ * وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ * تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ }
[الآيات : ٣٨-٤٣]

يقسم ربنا سبحانه وتعالى لخلقه بما يشاهدون، وبما لا يشاهدون من ملكوت الله على أن القرآن كلامه سبحانه، ووحيه إلى رسول كريم وهو محمد صلى الله عليه وسلم.
وأن هذا القرآن ليس بقول شاعر ولا بقول كاهن.
ولكنه تنزيل من رب العالمين على رسول الله بمنهج الله ليبلغه للناس.

* * *

ثم يقول سبحانه

{ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ * لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ }
[الآيتان : ٤٤-٤٧]

يعني: ولو تقول محمد وادعى علينا بعض الأقاويل التي لم نوح بها إليه.. لأخذنا منه باليمين عقاباً شديداً على ذلك
ثم لقطعنا منه حينئذ الوتين وهي شرايين القلب فما منكم من أحد في هذه الحالة عنه حاجزين ومانعين ما نفعله به.
ولكنه.. بفضل الله: لم يتقول علينا، ولم يفعل ما تزعمون عليه.
والقرآن الذي بلغكم إياه هو من عند الله.

* * *

{ وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ * وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ * وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ * وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ * فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ }
[الآيات : ٤٨-٥٢]

وإنه في الحقيقة لتذكرة للمتقين الذين يرضون ربهم، وهي تذكرة نافعة للدنيا كلها لا ينكرها إلا جاحد، ولا ينتفع بها إلا خاسر.
و مع ذلك إنا لنعلم أن منكم أيها البشر .... مكذبين بها ولها وعناداً.
وإنه أي: هذا التكذيب والعناد لحسرة على الكافرين يوم القيامة، خاصة إذا رأوا نعيم المصدقين به.
وإنه أي: القرآن الذي يكذبون به لحق اليقين الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.
لذلك:
فسبح يا محمد، ويا كل مؤمن باسم ربك العظيم تنزيهاً له سبحانه عما يقولون من تكذيب القرآن، وعدم الإيمان بوحدانية الله.

* * *

بقلم فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

الجن

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين.
وبعد.
فحديثنا الآن ــ بعون الله تعالى ــ في آيات سورة "الجن" وسورة الجن: مكية.
وهي تبدأ بقوله عز وجل.
بسم الله الرحمن الرحيم

{ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً * وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَداً }
[الآيات : ١ – ٣]

أي: قل يا محمد لقومك إنه أوحي إلى من ربي أنه قد استمع إلى القرآن وأنا أتلوه نفر من الجن وعددهم سبعة تقريباً وذلك بمكة قرب الحرم.
فقالوا لقومهم ما يلي:
أولاً: إنا سمعنا قرآناً عجبا في معاينة وفصاحته.
وهو يهدي إلى الرشد والفلاح.
لذلك: فآمنا به وبمن نزل عليه، وبمن أنزله، وهو الله الواحد الاحد ولن نشرك بربنا الذي أنزله أحدا أبداً.
خاصة وأنه تعالى جد ربنا وعظم شأنه، وجل جلاله ما اتخذ صاحبة ولا ولدا

* * *

{ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطاً * وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِباً }
[الآيتان : ٤ ، ٥]

أي: و قد عرفنا الآن أنه كان يقول سفيهنا إبليس على الله سبحانه وتعالى: كلا ما شططا كاذباً، بالغ البطلان.
وذلك: في الوقت الذي ظننا فيه أن لن تقول الإنس والجن على الله كذبا حتى تبين لنا كذبهم بما سمعناه.

* * *

ثم قالوا ثانياً:

{ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً * وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَداً }
[الآيتان : ٦، ٧]

وأنه في ذات الوقت كان رجال من الإنس يعوذون ويستجيرون، ويستنجدون برجال من الجن فزادوهم بهذا الفعل رهقاً غروراً وكبر وطغياناً.
وأنهم أي: رجال الأنس ظنوا كما ظننتم أيها الجن أن لن يبعث الله أحدا بعد الموت.
وهذا: خطأ آخر قد اكتشفناه.

* * *

ثم قالوا لقومهم ثالثاً:

{ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً * وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَّصَداً }
[الآيتان : ٨، ٩]

وأنا لمسنا السماء أي: حاولنا الاستماع إلى كلام أهلها فوجدناها قد ملئت حرساً شديداً وشهباً تمنعنا من ذلك الذي كنا نعرفه قبلاً.
خاصة وأنا كنا قبل هذا القرآن نقعد منها مقاعد للسمع ونصل إلى ما نريد.
على أية حال..
فمن يستمع الآن أي: يحاول ذلك يجد له شهاباً رصدا في انتظاره؛ ليحرقه.

* * *

ثم قالوا لهم رابعاً:

{ وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً * وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَداً }
[الآيتان : ١٠، ١١]

أي: وأنا بعد إيماننا لا ندري أشر يعني: عذاب أريد بمن في الأرض إذا لم يؤمنوا أم أراد بهم ربهم رشدا حيث يهديهم للإيمان، فلا يعذبون.
خاصة وأنا قد عرفنا بعد سماعنا للقرآن أن منا الصالحون المتقون ومنا دون ذلك أي: غير صالحين.
بحيث كنا طرائق قددا فرقاً مختلفة.
لذلك: هيا بنا جميعاً نؤمن بالله الإله الواحد.

* * *

ثم قالوا لهم خامساً:

{ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَباً }
[الآية : ١٢]

وقد عرفنا بعد إيماننا: أننا في قبضة الله، ولن نفر من قضائه، بل لن نفر من عذابه إذا لم نؤمن.
لذلك: هيا بنا جميعاً نؤمن بالله، الإله الواحد.
ثم قالوا لهم صراحة وبكل فخر:

{ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلا يَخَافُ بَخْساً وَلا رَهَقاً }
[الآية : ١٣]

أي: وأنا لما سمعنا الهدى وهو القرآن آمنا به فوراً.
ثم شجعوهم على الإيمان بقولهم:
فمن يؤمن بربه معنا فلا يخاف بخساً نقصاً لثوابه ولا رهقا ولا مذلة.
يعني: هيا بنا جميعا نؤمن بالله، الإله الواحد.

* * *

ثم قالوا سابعاً:

{ وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَداً * وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً }
[الآيتان : ١٤، ١٥]

أي: وأنا سيكون منا المسلمون المؤمنون بالله ورسوله، المهتدون بهذا القرآن.
و كذلك: سيكون منا القاسطون الكافرون بهذا الدين المحرمون من هدى القرآن.
فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا واختاروا طريق النجاة.
وأما القاسطون فقد ضلوا فكانوا بذلك لجهنم حطبا
لذلك: أدعوكم جميعا لنؤمن بالله، الإله الواحد هذا وقد آمن من الجن الكثير.

* * *

أيها الأحبة هذا الكلام الذي ورد على لسان فريق الجن لأقوامهم قاله النبي صلى الله عليه وسلم لقومه، كما أمره ربه، بـــ قل

* * *

ثم أمره ربه سبحانه أن يقول لهم كذلك:

{ وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقاً * لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَداً
}
[الآيتان : ١٦، ١٧]

يعني: وقل للدنيا كلها عن هؤلاء القاسطين من الجن والإنس الذين ضلوا وكفروا بالله قد أوحي إلى أنهم لو استقاموا على الطريقة الصحيحة، وهي الإسلام لأسقيناهم ماءً غدقا يعني: لوسعنا عليهم في الرزق.
وذلك لنفتنهم فيه أي: نختبرهم، هل يشكرون، أو يكفرون.!!
و في هذه الحالة من يعرض عن ذكر ربه ولا يؤمن يسلكه يدخله عذاباً صعدا أي: عذابا شاقا.

* * *

قل لهم أيضاً: أوحي إلى قوله تعالى

{ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا }
[الآية : ١٨]

أي: وأن المساجد لله هي بيوته سبحانه التي يتعبد له فيها بالصلاة لذلك فلا تدعوا وتعبدوا فيها مع الله أحدا غيره سبحانه، بل وحدوه عز وجل.
أيها الأحبة في الله..

* * *

وبهذا: انتهى حديث الجن، وما تلاه.

والآن..!!
يخبر ربنا عن أن النبي صلى الله عليه وسلم: صار يمارس عبادته، ويدعو إلى الله.
يقول سبحانه:

{ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا }
[الآية : ١٩]

وأنه لما قام عبد الله محمد رسول الله يدعو ربه، ويدعو إلى توحيده كادوا يكونون طوائف الجن والأنس عليه لبدا متزاحمين؛ رغبة في إيقاف دعوته، وإطفاء نور الله، بالإيذاء، والتكذيب.
ولكن يأبى الله إلا أن يتم نوره وينشر دينه.

* * *

يقول ربنا للحبيب صلى الله عليه وسلم: أولاً..

{ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلاَ أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً }
[الآية : ٢٠]

قل لكفار قريش وللدنيا كلها إنما أدعو ربي وحده، وأعبده وحده ولا أشرك به أبدا أحدا لذلك: آمنوا به ووحدوه سبحانه.

* * *

كذلك:

{ قُلْ إِنِّي لاَ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلاَ رَشَداً }
[الآية : ٢١]

أي: قل لهم إني أبلغكم فقط، وأنا بشر مثلكم، لا أملك لكم شيئا لا ضرا ولا رشدا لذلك: آمنوا بالله، ووحده سبحانه.

* * *

ثالثاً:

{ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَداً * إِلاَّ بَلاغاً مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالاتِهِ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً * حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِراً وَأَقَلُّ عَدَداً }
[الآيات : ٢٢-٢٤]

قل لهم وللدنيا كلها إني لن يجيرني يحميني من عذاب الله أحد.
و كذلك لن أجد من دونه ملتحدا ملجأ، أهرب إليه إلا بلاغا من الله ورسالاته يعني: إلا أن أبلغ رسالة الله، وأدعو إلى توحيده سبحانه.
و لذلك: آمنوا به، ووحدوه سبحانه.
حيث إن من يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم جزاءً عادلاً ويكونون خالدين فيها أبدا
حتى إذا راوا ما يوعدون من هذا العذاب..!
فسيعلمون ساعتها من منا أضعف ناصرا وأقل عددا..؟

* * *

وكأنهم سألوا مستهزئين متى يكون هذا العذاب..؟
فقال له ربه في الأمر الرابع..

{ قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَداً * عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً * إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً * لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً }
[الآيات : ٢٥-٢٨]

أي: قل لهم وللدنيا كلها إن أدري ما أدري أقريب ما توعدون به من العذاب أم يجعل له ربي أمدا بعيداً.
فهو وحدة سبحانه عالم الغيب ووقت هذا العذاب: غيب.
فلا يظهر الله على غيبه أحدا
إلا من ارتضى من رسول فإنه يطلعه على بعض الغيب ليكون معجزة له، ليقتنع الناس برسالته؛ فيؤمنوا بدعوته.
ومع ذلك..
فإنه سبحانه يسلك يجعل من بين يديه ومن خلفه ملائكة رصدا له، يحفظونه من الشياطين ومن الناس، حتى يبلغ رسالة ربه.
وذلك ليعلم الناس أن الرسل قد أبلغوا رسالات ربهم وأدوا أمانتهم في الدعوة إلى الله.
هذا
و قد أحاط الله سبحانه بما لديهم أي: الناس من إيمان أو كفر، وخلافه.
و أيضاً أحصى كل شيء من أعمالهم عددا في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.
وسيجازيهم سبحانه على الخير منها خيرا، وعلى الشر منها بمثله.

* * *

بقلم فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

التكوير

بسم الله الرحمن الرحيم

وهي: سورة مكية .. تتحدث عن القيامة، وحقيقة الوحي.
وتبدأ بقوله الله عز وجل:

{ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ * وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ * وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ * وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ * وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ * وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ * وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ * وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ * وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ * وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ }
[الآيات : ١-١٣]

نعم..
إذا حدث هذا: فقد قامت القيامة.
يعني:

إذا الشمس كورت لفت بعضها على بعض، وذهب ضوؤها .. !!
وإذا النجوم انكدرت أي: تساقطت من أماكنها .. !!
وإذا الجبال سيرت من أماكنها، ونسفت، وصارت هباءً منبثا .. !!
وإذا الإبل العشار أي: الحوامل عطلت ولم يصبح لها قيمة، ولم تعد الأموال تنفع أصحابها .. !!
وإذا الوحوش وجميع الحيوانات والحشرات جمعت، وحشرت ليقتص لها من بعضها البعض..!!
وإذا البحار كلها سجرت أي: فجرت وفتحت على بعضها البعض، وأوقدت، فصارت ناراً ..!!
وإذا النفوس بأبدانها زوجت أي: ركبت .. !!
وإذا المؤودة التي قتلها أهلها سئلت تهديداً لقاتلها بأي ذنب قتلت .. ؟!!
وإذا الصحف التي فيها أعمال الخلائق نشرت فتحت، وظهر للخلائق ما فيها .. !!
وإذا السماء كشطت وأزيلت من أماكنها .. !!
وإذا الجحيم سعرت أو قدت بالنار الشديدة .. !!
وإذا الجنة أزلفت أي: قربت من أهلها المتقين؛ ليدخلوها.

نعم ..
إذا وقعت هذه الأشياء، يوم القيامة ..

{ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ }
[الآية : ١٤]

أي: علمت كل نفس حينئذ ما أحضرت
أي: ما كتب في صحائفها من خير الأعمال وشرها.

* * *

ولهذا ..
ينبغي على كل إنسان: أن يحذر هذا الموقف.
وذلك: بالاستعداد بفعل الخير، والابتعاد عن فعل الشر طاعة لله تعالى ،

* * *

ولكي تعرف .. أخي المسلم: طريق الخير، فتسير فيه، وطريق الشر فتبتعد عنه .. !!
عليك بالقرآن.
الذي يقسم عليه ربنا في قوله:

{ فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ * الْجَوَارِ الْكُنَّسِ * وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ * وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ }
[الآيات : ١٥-١٨]

يعني: فلا أقسم بالخنس * الجوار الكنس وهي الكواكب السيارة، التي تظهر وتختفي، وتأتي وتغيب.
والليل إذا عسعس أقبل بظلامه، أو أدبر.
والصبح إذا تنفس أي: أضاء.
هذا هو المعنى.
ولكن ما جواب هذا القسم.. ؟
الجواب:

{ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ }
[الآية : ١٩]

إنه أي القرآن لقول رسول كريم
أتدرون من هو هذا الرسول الكريم .. ؟
إنه: جبريل عليه السلام.
نعم .. !!
ماذا تقول .. ؟
تقول: كيف يكون القرآن قول جبريل عليه السلام.
يعني هو الذي نزل به من عند رب العالمين، وبلغه لمحمد صلى الله عليه وسلم.
وللعلم جبريل هذا .. يقول عنه رب العزة.

{ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ }
[الآيتان : ٢٠، ٢١]

يعني ذي قوة صاحب قدرة كبيرة على فعل ما يكلف به.
وهو عند ذي العرش سبحانه وتعالى مكين في مكانته، رفيع في منزلته مطاع من أفراد الملائكة ثم هو: هناك في عالم الملائكة أمين على وحي الله تعالى لرسله.

* * *

هذا ..
وبالنسبة لمن نزل عليه القرآن عليه الصلاة والسلام.
فيقول رب العزة:

{ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ * وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ * وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ }
[الآيات : ٢٢-٢٤]

أي: وما محمد صاحبكم الذي تعرفونه جيداً بمجنون كما تزعمون أيها الكفار.
ولقد رآه أي رأى محمد صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام بالأفق المبين الواضح، وذلك على صورة الملائكة عند بدء الوحي.
وما هو أي: محمد صلى الله عليه وسلم على الغيب أي: الوحي بضنين ببخيل يمسك به ولا يبلغه.
بل هو: أمين أمين أمين.
لذا: ينبغي تصديقه، والإيمان به، وإتباع ما يبلغ به عن ربه.

* * *

وللعلم هذا الذي يوحى إليه، ويبلغه: هو القرآن، من عند رب العالمين.

{ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ }
[الآية : ٢٥]

إذاً .. !!

{ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ }
[الآية : ٢٦]

أي: ماذا تقولون .. ؟
وأين تذهب عقولكم في شأنه .. ؟

* * *

على أية حال:

{ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ * لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ }
[الآيات : ٢٧، ٢٨]

أي: ما القرآن إلا ذكر وموعظة للعالمين ينتفعون به، ويتعظون.
ومن هنا: لمن شاء منكم الهداية والنجاة أن يستقيم على تعاليمه، وآدابه، وأحكامه.
وأعلموا جيداً أنه:

{ وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ }
[الآية : ٢٩]

دون إكراه لكم ولا إجبار.

***

بقلم فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

الانفطار

بسم الله الرحمن الرحيم

وهي: سورة مكية.
وهي تتحدث عن:
القيامة.
والعتاب لهذا الإنسان الذي لا يشكر المنعم، ولا يعرف لربه قدره.
وعلة تكذيب هذا الإنسان بيوم الحساب.
وعن يوم الحساب.
وتبدأ بقوله عز وجل:

{ إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ * وَإِذَا الكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ * وَإِذَا البِحَارُ فُجِّرَتْ * وَإِذَا القُبُورُ بُعْثِرَتْ }
[الآيات : ١–٤]

نعم ...
إذا حدث هذا: فقد قامت القيامة.
يعني:
إذا السماء انفطرت أي: انشقت.
وإذا الكواكب انتثرت أي: تساقطت من أماكنها.
وإذا البحار فجرت أي: فتحت على بعضها البعض، وصارت بحرا واحداً، واختلط العذب بالمالح.
وإذا القبور بعثرت أي: فتحت، وقلب ترابها، وبعث موتاها.

* * *

نعم ..
إذا وقعت هذه الأشياء يوم القيامة ..

{ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ }
[الآية : ٥]

أي: علمت كل نفس حينئذ ما قدمت من طاعة وأخرت

* * *

ولهذا:
ينبغي على كل إنسان: أن يحذر هذه الموقف.
وذلك: بالاستعداد بفعل الخير، والابتعاد عن فعل الشر.
طاعة لله تعالى.

* * *

إذ في هذا اليوم يقول الله لهذا الإنسان:

{ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ }
[الآيات : ٦–٨]

يهدد الله الإنسان الكافر قائلاً: ما الذي غرك أي: جرأك على المعصية، وخدعك بربك الكريم العظيم، حتى عصيته .. ؟
خاصة أنه سبحانه : هو الذي خلقك بعد أن لم تكن فسواك جعلك مستوى الخلق، سالم الأعضاء فعدلك جعلك في أحسن الهيئات والأشكال.
وذلك في أي صورة ما شاء سبحانه بقدرته ركبك.
يقول ابن عمر رضي الله عنهما: غره والله جهله.
ويقول الحسن: غره والله شيطانه الخبيث؛ حيث زين له المعاصي وقال له افعل ما شئت، فربك الكريم الذي تفضل عليك أولاً: سيتفضل عليك آخراً؛ حتى ورّطه.

* * *

ولكن ...
ما الذي أدى – حقيقة – بالإنسان إلى هذا الاغترار على هذا النحو الفاحش ..؟
الجواب.
يقول تعالى:

{ كَلاَّ بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ }
[الآية : ٩]

كلا ردع لهم عن الاغترار، مع بيان أن السبب الحقيقي لهذا الاغترار، الذي دفعهم للكفر والعصيان: هو التكذيب بيوم الدين بل تكذبون بالدين وهو الجزاء في يوم القيامة.

* * *

على أية حال ..
أنتم تكذبون ..

{ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَاماً كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ }
[الآيات : ١٠–١٢]

نعم ..
وإن عليكم من الملائكة لحافظين لأعمالكم وأقوالكم.

مع كونهم كراماً على الله تبارك وتعالى كاتبين لكل ما يصدر عنكم.
وهم يعلمون بإعلام الله لهم ما تفعلون لا يخفى عليهم شيء من أعمالكم.

* * *

وفي هذا: تهديد وتخويف من العصيان.
ودعوة للطاعة والإيمان.
وتذكير بيوم القيامة وأحواله وأحوال الناس فيه.

* * *

نعم ..
أحوال الناس، الذين ينقسمون فيه إلى قسمين:
يقول تعالى:

{ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ * يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ * وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ }
[الآيات : ١٣-١٦]

يبين الله في هذه الآيات: مصير القسم الأول.
وهم المتقون الطائعون ..
فيقول إن الأبرار لفي نعيم الجنة.
ثم يبين سبحانه: مصير القسم الثاني.
وهم الكفار العصاة ..
فيقول وإن الفجار لفي جحيم النار.
هؤلاء الكفار:
يصلونها يعني: يدخلونها، ويقاسون حرها يوم الدين أي: يوم الجزاء.
وما هم في ذات الوقت، وعلى هذا الحال عنها بغائبين لا بالهروب، ولا بالموت، بل هم فيها خالدون.
كل ذلك في يوم القيامة، الذي هو يوم الدين.

* * *

{ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ * ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ * يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ }
[الآيات : ١٧-١٩]

وما أدراك وما أعلمك ما يوم الدين وما فيه .. !!
ثم ما أدراك ما يوم الدين وعظمته، وشدته .. !!
يوم لا تملك فيه نفس لنفس شيئاً ولو كان ذا قربى.
والأمر يومئذ كما هو في كل وقت لله وحده، لا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه.

* * *

بقلم فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

الانشقاق

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة: مكية.
وهي: تبدأ بقول الله عز وجل:

{ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ * وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ * وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ }
[الآيات : ١–٥]

نعم ...
إذا السماء انشقت تشققت وتصدعت وأذنت استمعت لربها وأطاعت وحققت أي: وحُق لها أن تسمع وتطيع لأمر الله.
وإذا الأرض مدت بسطت وسويت، ولم يبق عليها بناء ولا جبل وألقت ما فيها من الأموات وتخلت عنهم، وأذنت استمعت لربها وأطاعت وحقت أي: وحق لها أن تسمع وتطيع لأمر الله.
نعم ..
إذا حدث هذا: فقد قامت القيامة

* * *

لذلك: فانتبه ..

{ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ * فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً * وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً * وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ * فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُوراً * وَيَصْلَى سَعِيراً * إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً * إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ * بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيراً }
[الآيات : ٦–١٥]

نعم ..
انتبه يا أيها الإنسان لهذا اليوم، واستعد بالإيمان، والعمل الصالح له.
حيث إنك كادح أي: ساع وسائر إلى ربك بالموت كدحا.
لذلك: فمن استطاع أن يكون كدحه وسعيه وعمله في طاعة الله .. فليفعل.
إذ مهما كان كدحه خيراً، أو شراً : فــإنه ملاقيه وسوف يحاسب عليه.
والناس أقسام على حسب عملهم وسعيهم ويوم القيامة.

أ- فأما من أوتي كتابه الذي سجل فيه عمله بيمينه وهو المؤمن فسوف ..
أولاً: يحاسب حساباً يسيراً وهو عرض عمله عليه، ثم يثاب على الطاعة، ويتجاوز له عن المعصية.
ثانياً: وينقلب أي: يرجع إلى أهله المؤمنين في الجنة فرحاً مسروراً
ب- وأما من أوتي كتابه بشماله من وراء ظهره وهو الكافر فسوف ..
أولاً: يدعوا ثبوراً يقول: يا ويلاه ..!! يا هلاكاه ..!! ، من شدة أهوال ما يلاقي.
ثانياً: ويصلى يدخل سعيراً أي: جهنم
حيث إنه كان في الدنيا وهو في أهله أي: معهم مسروراً بما يفعل من إنكار البعث، وعدم توحيد الله، والسخرية بالمؤمنين.
نعم إنه ظن أن لن يحور أي: لن يرجع إلى ربه، ولن يكون هذا اليوم؛ لأنه كذب بالبعث.
بلى سيرجع الكافر، وسيبعث إن ربه كان به بصيرا وسيجازيه على كفره، وعمله السيء.

* * *

إذا عرفت هذا أيها الإنسان، وتحققت من البعث، وتيقنت من الرجوع إلى ربك:

{ فَلاَ أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ * وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ * وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ }
[الآيات : ١٦-١٨]

الجواب:

{ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَن طَبَقٍ }
[الآية : ١٩]

يعني: يقسم ربنا ببعض مخلوقاته؛ منبهاً لهم على أمر خطير؛ حيث يقسم بالشفق وهو الحمرة في الأفق بعد غروب الشمس.
كما يقسم بالليل وما وسق أي: ما دخل عليه بظلمته من الكائنات.
وثالثاً: يقول والقمر إذا اتسق يعني: اجتمع نوره وتم، وذلك في الليالي البيض.
يقسم ربنا عز وجل بهذه الأشياء .. ثم يقول : لتركبن يا أيها الناس طبقاً عن طبق حالاً بعد حال.
كالموت، ثم الحياة بعده، ثم أحوال وشدائد القيامة.

* * *

وإذا كان هذا حالهم في يوم القيامة .. !!
وإذا كانوا قد عرفوه وهم في الدنيا .. !!

{ فَمَا لَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لاَ يَسْجُدُونَ }
[الآيتان : ٢٠، ٢١]

فمالهم أي الكفار، بعد هذا الوضوح لا يؤمنون بالله واليوم الآخر .. ؟
و ما لهم أيضاً إذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون أي: لا يخضعون .. ؟
نعم ..
ما الذي يمنع من الإيمان والخضوع .. ؟
هل هو عدم وضوح الحق أمامهم .. ؟
هل هو عدم فهمهم .. ؟
لا هذا ولا ذاك.

{ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ * وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ * فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ }
[الآيات : ٢٢-٢٤]

بل الحقيقية: أن الذين كفروا يكذبون بالبعث وما بعده.
والله سبحانه وتعالى أعلم بما يوعون أي: يجمعون في صحائف أعمالهم من الكفر وأعمال السوء؛ وسيجازيهم عليها.
لذلك فبشرهم بعذاب أليم مؤلم.

* * *

هذا عن الكافرين.
وأما عن المؤمنين .. فيقول ربنا عز وجل:

{ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ }
[الآية : ٢٥]

إلا أي: لكن الذين آمنوا بقلوبهم وعملوا الصالحات بجوارحهم: فهؤلاء لهم في الآخرة أجر أي: جزاء غير ممنون غير مقطوع ولا منقوص.

* * *

بقلم فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

البروج

بسم الله الرحمن الرحيم

وهي: سورة مكية.
تبدأ بقول الله عز وجل:

{ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ * وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ * وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ }
[الآيات : ١–٣]

هذا: قسم من الله تعالى، يقسم فيه سبحانه ..
بالسماء ذات البروج والبروج: هي: المنازل والطرق التي تسير فيها الكواكب.
وباليوم الموعود وهو يوم القيامة.
وبشاهد في ذلك اليوم ومشهود والشاهد هو كل الخلائق، والمشهود: هو ما في هذا اليوم من العجائب والأحوال والأهوال.
أيها الكرام ..
كل هذا قسم .. وجوابه محذوف.
تقديره: لقد لُعِن المكذبون لمحمد صلى الله عليه وسلم.

* * *

نعم ..
لقد لعنوا .. كما:

{ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ }
[الآية : ٤]

أي: لعن وطرد من رحمة الله أصحاب الأخدود.

ولكن ..
ما هذا الأخدود .. ؟
هو: شق عظيم في الأرض.
ملأه المكذبون، بـــ:

{ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ * إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ * وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ }
[الآيات : ٥-٧]

نعم .. بالنار ذات الوقود الهائل الشديد، المكون من الحطب، وأبدان الناس.
إذ هم عليها أي: حولها قعود يتفرجون على هذا الحريق لمخالفيهم.
وهم أي: المكذبون الكافرون على ما يفعلون بالمؤمنين شهود أي: حضور، يشرفون بأنفسهم على هذا الحرق.
وقد حدث هذا من الكفار لبعض أقوامهم.
وتحلقوا حولهم، وصاروا يتلذذون بهذا الإحراق.

* * *

ولكن ..
لماذا فعلوا هذا ..
يقول المولى:

{ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ * الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ }
[الآيتان :٨ ، ٩]

وما نقموا منهم يعني: وما عابوا عليهم شيئاً فعلوه إلا أن يؤمنوا ويستمروا على إيمانهم، ويتمسكوا به، ولا يستجيبوا لهم في الكفر بالله سبحانه وتعالى العزيز الغالب الحميد المنعم الذي له ملك السموات والأرض والكل في قبضته وتحت سلطانه وهو سبحانه على كل شيء شهيد.

* * *

وإذا كان الله قد لعن هؤلاء الطغاة في الدنيا: فإن جزاءهم في الآخرة فظيع.
حيث يقول تعالى:

{ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ }
[الآية : ١٠]

يعني: إن الظالمين الذين فتنوا أي: عذبوا المؤمنين والمؤمنات ليردوهم عن دينهم، أو يمنعوهم من إقامة شرع ربهم ثم لم يتوبوا قبل موتهم، وماتوا على ذلك: فلهم عذاب جهنم جزاءً عادلاً لهم ولهم فيها: أي جهنم عذاب الحريق كما حرقوا المؤمنين في الدنيا.

* * *

وأما أهل الإيمان ..
فيقول عنهم ربنا تبارك وتعالى:

{ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ }
[الآية : ١١]

نعم .. إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وصبروا على أذى الكافرين في حال ضعفهم: لهم عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار بخلاف أعدائهم الذين لهم عند ربهم عذاب جهنم ولهم كذلك عذاب الحريق.
حقاً ذلك هو الفوز الحقيقي الكبير

* * *

يا محمد، ويا كل داعية إلى الله .. !!
لا تيأس، لا تجزع من علو الطغيان، وأذى الطغاة، ما دمت قد بذلت ما في وسعك: فإن ربك سوف ينتقهم منهم، ويبطش بهم.

{ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ * إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ * وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ * ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ * فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ }
[الآيات : ١٢-١٦]

إن بطش ربك بالظلمة، وانتقامه منهم لشديد حيث إنه سبحانه هو الذي يبدئ الخلق، ويميتهم ويعيد بعثهم فهو القادر الذي لا يعجزه شيء.
وهو في ذات الوقت الغفور لمن أذنب وتاب إليه الودود المحب لأوليائه.
وهو سبحانه ذو العرش صاحب العرش، وخالقه، ومالكه المجيد المستحق لكمال صفات العلو والمجد والرفعة والعظمة.
لكل ذلك:
هو فعال لما يريد لا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه، لا يمنعه من تعذيب الطغاة والعصاه شيء، ولا يمنعه كذلك من تكريم المؤمنين الطائعين الصابرين شيء.

* * *

يا محمد، ويا كل داعية إلى الله .. !!

{ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ * فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ }
[الآيتان : ١٧، ١٨]

هل أتاك وعرفت حديث الجنود الطغاة الظلمة ..
من أمثال فرعون وثمود وعرفت ما نزل بهم، وما حدث لهم؛ لتطمئن لانتقام ربك من المكذبين، وتثق أن بطش ربك لشديد

* * *

{ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ * وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ }
[الآيتان : ١٩، ٢٠]

بل إن أمر قومك أعجب من حديث الجنود هؤلاء؛ حيث إن الذين كفروا منهم في تكذيب مستمر، وعناد متبجح.
والله عز وجل من ورائهم محيط بهم، لا يفلتون منه، وسوف يعذبهم على هذا التكذيب والعناد إن لم يؤمنوا.

* * *

إنهم يكذبون ما جئت به، وما تبلغهم إياه، ويقولون إنه أساطير الأولين.
لا .. لا .. ليس الأمر كما يقولون .. !!

{ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ }
[الآيتان : ٢١، ٢٢]

يعني بل الذي يقولون عنه ذلك هو قرآن مجيد عظيم.
كما أنه في لوح محفوظ من الشياطين، ومن التغيير فيه، والتبديل له.
لذلك: كيف يكفرون به .. ؟

* * *

بقلم فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

الأعلى

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الأعلى :المكية.
حيث يقول سبحانه وتعالى:

{ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى * وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى * فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى }
[الآيات : ١-٥]

أولاً: **هذه سورة .. كان يحبها النبي صلى الله عليه وسلم؛ وذلك لكثرة ما احتوت عليه من الخيرات، كما قال الإمام النووي.**

ثانياً: **كان النبي صلى الله عليه وسلم يقرؤوها في صلاة الوتر وحيث تقول السيدة عائشة رضي الله عنها حيث سئلت ..**
بأي شيء كان يوتر رسول الله صلى الله عليه وسلم؟،
قالت ــ كان يقرأ صلى الله عليه وسلم، في الأولى: بــ سبح اسم ربك الأعلى وفي الثانية: بــ قل يا أيها الكافرون وفي الثالثة: بــ قل هو الله أحد والمعوذتين.
ثالثاً: **لما نزلت هذه السورة .. قال صلى الله عليه وسلم:**
"اجعلوها في سجودكم"

رابعاً: **معنى هذه الآيات..**
نزه ربك عما لا يليق به.
فهو سبحانه الأعلى صاحب العلو والقهر والغلبة.
وهو سبحانه الذي خلق كل شيء فسوى خلقه على إحكام وإتقان.
و سبحانه الذي قدر لكل مخلوق ما يصلحه فهدى وأرشد إلى وجوه النفع والإفادة.
و هو سبحانه الذي أخرج المرعى من جميع صنوف النباتات والمزروعات، خضراً ناضجاً من الأرض فجعله بقدرته بعد ذلك غثاءً هشيماً ضعيفاً بعد تماسكه أحوى يابساً بعد طراوته.
خبروني أيها الكرام .. !!
ألا يستحق ربنا سبحانه التسبيح .. ؟
حقاً "سبحان ربي الأعلى" وتنزه وتعالى عما لا يليق بذاته.

* * *

ولكن ..!!

ما دامت التزكية للأخلاق، والتذكر لله في جميع الأحوال، والصلاة .. طريق الفوز والفلاح .. !!

فلم ينصرف عنها الناس .. ؟

وما السبب في ذلك .. ؟

يقول ربنا تبارك وتعالى:

{ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى }
[الآيتان : ١٦، ١٧]

أي بل أنتم تؤثرون تفضلون الحياة الدنيا وما فيها من زخرف فانٍ على الآخرة وما فيها من نعيم باق لا يزول.

والآخرة وما فيها لو كنتم تعقلون خير لكم وأبقى من الدنيا وما فيها.

* * *

{ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى]
[الآيتان : ١٨، ١٩]

نعم ..

إن هذا الفلاح لمن تزكى، وخيرية الآخرة ودوامها لفي الصحف الأولى مسجل وموجود، وموحى به إلى الرسل السابقين.

* * *

بقلم فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

البلد

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة: مكية.
تبدأ بقول الله عز وجل:

{ لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَأَنتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ }
[الآيات : ١-٣]

يقسم ربنا سبحانه وتعالى ــ في صدر هذه السورة ــ بشيئين، وله سبحانه أن يقسم بما شاء.
حيث يقسم قائلاً:
لا أقسم أي: أقسم بهذا البلد وهي مكة المكرمة، شرفها الله.
كما يقسم قائلاً ووالد أي: آدم عليه السلام وما ولد أي: ذريته من بعده.
وفي القسم بمكة: تشريف لها، وتعظيم، وتحريم.
وفي القسم بآدم وذريته: تكريم له ولذريته، وإظهار لقدرته سبحانه عز وجل.
وأما عبارة وأنت حل بها فهو خطاب للحبيب صلى الله عليه وسلم من ربه.
ومعنا: أقسم بها وأنت مقيم فيها.
وفي هذا: من التشريف للنبي صلى الله عليه وسلم.

* * *

ولكن..
علام يقسم ربنا عز وجل بهذا القسم..؟
الجواب.

{ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ }
[الآية : ٤]

نعم.. لم نخلق هذا الإنسان عبثاً، ولم نخلفه بلا غاية.
بل: خلقناه لمهمة ورسالة وتكليف.
لذلك: فهو في معاناة، ومتاعب.
حقاً لقد خلقنا الإنسان في كبد أي: يكابد ويعاني مضائق الدنيا، وشدائد الآخرة؛ لينال ما يستحق عن جدارة واختيار.

* * *

ومع ذلك: فهو في قبضتنا..

{ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ * يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُّبَداً * أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ }
[الآيات : ٥–٧]

نعم..
أيحسب هذا الإنسان، ويظن غروراً منه، وفراراً من المسئولية أن لن يقدر عليه أحد وأن لن يحاسبه أحد..؟
لذلك يقول غروراً بماله، واعتداداً بقوته أهلكت أي: أنفقت في حرب الدعوة، وصد الناس عن سبيل الله، وفي الشهوات مالاً لبدا أي كثيراً.
وهذا: هو الكافر..
أيحسب بقوله هذا، وفعله ذاك أن لم يره أحد أي: أيظن أن الله غير موجود؟ أو غير قادر عليه، وعلى عقابه..؟
إن كان يظن ذلك عن قناعة..!!
فليسمع..

{ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ }
[الآيات : ٨–١٠]

حتى يعرف: قدرتنا عليه.
وحتى يبصر الحق الذي ندعوه إليه.
وحتى ينطق بالصدق والإيمان الذي يثاب عليه.
وحتى يختار طريق الخير من هذين النجدين وهما طريق الخير، وطريق الشر؛ حيث هديناه، وبصرناه بهما، ومكناه من سلوك ما يشاء منهما.

* * *

وبعد معرفته لقدرتنا عليه..!!
وإنعامنا به..!!
وإعلامنا له بالخير والشر..!!

{ فَلاَ اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ * يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ }

[الآيات : ١١-١٦]

أي: فهلا أقتحم العقبة أي: جاهد نفسه، بقوة العزيمة، وصدق الرغبة في طاعة الله؛ حتى يتخطى ويتجاوز هذه العقبة، التي تحول بينه وبين الإيمان الصادق.
ولكن..!!
ما هذه العقبة..؟
إنها شيء عظيم.. يقول عنها ربنا معظماً وما أدراك ما العقبة..!!
ثم يبينها عز وجل قائلاً: إنها فك رقبة أي: إعتاق رقبة مسلم من ذل العبودية، أو المساعدة في ذلك.
أو إطعام في يوم ذي مسغبة أي: من الأقارب، أو مسكيناً ذا متربة أي: في غاية الفقر.

* * *

وبعد هذا.. دوام على طاعة الله..!!
نعم..

{ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ }
[الآية : ١٧]

أي: صار من المؤمنين، العاملين، المتحابين، المتراحمين، الذين يتواصون فيما بينهم وبين أنفسهم، وبينهم وبين بعضهم البعض بالصبر على طاعة الله، والصبر عن معصيته، الصبر على الشدائد والبلايا، والصبر في ساحات الجهاد.

* * *

حقاً..

{ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ }
[الآية : ١٨]

أي: هؤلاء هم: أهل اليمين، الذين يؤتَوْن كتبهم بأيمانهم، والذين قال الله عنهم وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين* في سدر مخضود* وطلح منضود* وظل ممدود* وماءٍ مسكوب* وفاكهةٍ كثيرة* لا مقطوعةٍ ولا

ممنوعة* وفرشٍ مرفوعة* إنا أنشأناهن إنشاءً* فجعلناهن أبكارا* عربا أترابا* لأصحاب اليمين [الواقعة ٢٧-٣٨]

* * *

وأما الذين لم يقتحموا العقبة، ولم ينضموا للذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة فيقول عنهم ربنا عز وجل:

{ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ * عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ }
[الآيات : ١٩-٢٠]

أي: هؤلاء هم: أهل الشمال، الذين يؤتون كتبهم بشمالهم عليهم نار مؤصدة مغلقة الأبواب.
وهم الذين قال الله عنهم وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال* في سموم وحميم* وظلٍ من يحموم* لا باردٍ ولا كريم* إنهم كانوا قبل ذلك مترفين [الواقعة٤١-٤٥]
نسأل الله السلامة..
ونسأله سبحانه: أن نكون من أصحاب اليمين.
إنه ولي ذلك والقادر عليه.

***

بقلم فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

التين

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه السورة: مكية.
وهي تبدأ: بقول المولى سبحانه.

{ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ * وَطُورِ سِينِينَ * وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ }
[الآيات : ١-٣]

يقسم ربنا تبارك وتعالى بهذه الأشياء الأربعة، وله سبحانه أن يقسم بما يشاء.
حيث يقسم قائلاً:
والتين وهو هذه الفاكهة المعروفة.
والزيتون وهو هذا الزيتون الذي يؤكل ويعصر منه الزيت.
وطور سينين وهو هذا الجبل الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام، ومعنى: سينين.. أي المبارك.
وهذا البلد الأمين وهي: مكة المكرمة.
ويلاحظ: أن القسم بهذه الأشياء.. فيه الإشارة إلى تشريف البقاع الطاهرة التي تواجد فيها ثلاثة من أولي العزم من الرسل..هم: محمد صلى الله عليه وسلم، صاحب البلد الآمين وموسى عليه السلام، صاحب طور سيناء وعيسى عليه السلام، صاحب بلاد التين والزيتون وهي بلاد الشام.

* * *

ولكن..!!
علام يقسم ربنا بهذه الأشياء..؟
الجواب:

{ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ }
[الآيتان : ٤،٥]

أي: لقد خلقنا ــ بقدرتنا ــ جنس الإنسان عامة في أحسن تقويم
نعم.. والله.!!
في أحسن صورة وشكل، فهو منتصب القامة، على خلاف بقية المخلوقات، سَوِىّ الأعضاء، تام الخلقة، بهىّ الطلعة.
ثم بعد هذا الحسن، الذي يكون فيه، ولا يطيع الله تعالى بسببه..!!
يقول تعالى رددناه عدلاً منا أسفل سافلين أي: في أقبح صورة، وأبشع منظر؛ إذ يكون من أهل النار.

* * *

يا سبحان الله..!!

هل كل الخلق على هذا..؟
لا.. أبدا.
يقول الكريم العظيم:

{ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ }
[الآية : ٦]

نعم إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلا ينطبق عليهم هذا الكلام؛ حيث لا يردون إلى أسفل سافلين.
بل يكرمهم ربهم سبحانه على طاعتهم له، وإقبالهم عليه؛ حيث يقول فلهم منا أجر عظيم غير ممنون أي: مستمر، لا ينقطع، ولا ينقضي.

* * *

يا أيها الإنسان..!!
هل عرفت هذا جيداً..؟

{ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ * أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ }
[الآيتان : ٧،٨]

أي: ما الذي يجعلك ــ بعد هذا البيان ــ تكذب بالدين وهو يوم الجزاء، يوم البعث، يوم القيامة..؟
أليس الله سبحانه وتعالى بأحكم الحاكمين وأعدل العادلين، الذي لا يظلم، ولا يترك المظلوم دون أن يقتص له من ظالمه، ولا يترك الكافر دون أن يعاقبه، ولا يترك الصالح دون أن يكافئه..؟
بلى.. وألف بلى.
إنه سبحانه أحكم الحاكمين، ونحن على ذلك من الشاهدين.

***

بقلم فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

البيِّنة

بسم الله الرحمن الرحيم

وهي: سورة مكية.
تبدأ بقول المولى تبارك وتعالى:

{ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ }
[الآية : ١]

نعم..
إنا أنزلناه في ليلة القدر لأنه لم يكن الذين كفروا بالحق وجحدوا به من أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى والمشركين وهم كل من ليس من أهل الكتاب ليس مسلماً.
لم يكن هؤلاء منفكين أي: منفصلين عن هذا الكفر، وتاركين له..
حتى تأتيهم البينة أي الحجة الواضحة، التي بسببها يؤمنون، ويتركون ما هم عليه من الكفر.

* * *

ولكن..
ما هذه البينة المنتظرة..؟
إنها..

{ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفاً مُّطَهَّرَةً * فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ }
[الآيتان : ٢،٣]

نعم..
رسول من الله
وقد جاء هذا الرسول، وهو محمد صلى الله عليه وسلم..!!
جاء يتلو على الدنيا كلها صحفاً مطهرة من الشرك والباطل.
وهذه الصحف فيها كتب أي: مكتوبات، وتعاليم قيمة مستقيمة؛ حيث إنها ناطقة بالحق والعدل.

* * *

أتدرون ماذا فعلوا بعد أن جاءهم هذا الرسول العظيم، بهذه الصحف القيمة..؟
آمن بعضهم، وكفرت غالبيتهم.
حتى أهل الكتاب.
الذين يقول عنهم ربنا سبحانه وتعالى

{ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَةُ }
[الآية : ٤]

ولم يكن لهم في ذلك أدنى شبهة تدعوهم لهذا التفرق بسببه، والكفر به، حيث أخبرت كتبهم به صلى الله عليه وسلم.

* * *

كما أنه:

{ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ }
[الآية : ٥]

يعنيوما أمروا في كتبهم قبل تحريفها إلا ليعبدوا الله وحده مخلصين له الدين من غير شرك حنفاء مائلين ومبتعدين عن كل باطل وكفر.
كما أمروا أن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة
وذلك الذي أمروا به: هو دين القيمة أي: الدين المستقيم الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم.
إذا..لِمَ لَمْ يؤمنوا به..؟

* * *

إنه العناد..
حقاً:

{ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ }
[الآية : ٦]

إن الذين كفروا من أهل الكتاب بعد بعثة محمد صلى الله عليه وسلم والمشركين كذلك في نار جهنم يقيمون، ويعذبون خالدين فيها لا يخرجون منها، ولا يموتون فيها.
حقاً.. أولئك هم شر البرية التي خلقها الله تعالى

* * *

وإذ كان هؤلاء هم: شر البرية.
فهناك "خير البرية"
وهم الذين يقول عنهم تبارك وتعالى:

{ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ * جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ }
[الآيتان : ٨،٧]

نعم..
هؤلاء هم خير البرية أي: خير الخلق أجمعين.
لذلك رضي الله عنهم بقبوله أعمالهم، وإنعامه عليهم.
ورضوا عنه أي: سعدوا برضاه، وإنعامه عليهم.
وهذه المقامات العلية العالية: لا تكون إلا لمن خشي ربه واتقاه حق تقاه، وعبده كأنه يراه.

* * *

بقلم فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

التكاثر

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه السورة: مكية.
تبدأ بقول الله سبحانه وتعالى للناس:

{ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ }
[الآيتان : ١، ٢]

ألهاكم يعني: شغلكم التكاثر بالدنيا وما فيها من أموال وأولاد وزينة ومتاع، وصرفكم ذلك عن طاعة الله، وطلب الآخرة، والعمل لها..
حتى زرتم المقابر ودفنتم فيها، وصرتم من أهلها.

* * *

{ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ }
[٣، ٤]

كلا ! لا ينبغي للعاقل أن تشغله الدنيا عن الآخرة، ولا أن تشغله المعاصي عن طاعة الله.
وإلا سوف تعلمون عند الاحتضار وخروج الروح: سوء هذا الانشغال، وعواقبة الوخيمة.
ثم كلا لا ينبغي للعاقل أبداً أن تشغله الدنيا عن الآخرة، ولا أن تشغله المعاصي عن طاعة الله.
وإلا سوف تعلمون في القبر كذلك: سوء هذا الانشغال، وعواقبه الوخيمة.

* * *

ثم يكرر ربنا هذا الردع والتخويف لهؤلاء المنشغلين بالدنيا عن الآخرة..
فيقول سبحانه:

{ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ * ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ }
[الآيات : ٥-٨]

كلا ! لا ينبغي للعامل أبداً أبدا أن تشغله الدنيا عن الآخرة..
حيث إنكم لو تعلمون ما يكون في الآخرة من أهوال جسام نتيجة هذا التفاخر والانشغال بالدنيا وزخرفها علم اليقين لما فعلتم ما فعلتم، بل لصرتم من الأتقياء الصالحين.
والله.. يا من انشغلتم بالدنيا، وتشاغلتم عن طاعة الله لترون الجحيم رؤيا عين وعذاب، حينما تدخلونها.
ثم لترونها عين اليقين الذي ليس بعده شك ولا تكذيب.
ثم لتسألن سؤال تبكيت وتقريع وعذاب عن هذا النعيم الذي كنتم فيه، ولم تشكروا الله عليه، ولم تطيعوا بسببه.

* * *

بقلم فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر

الإخلاص

بسم الله الرحمن الرحيم

وهي: سورة مكية.
تهدف إلى: إثبات وتقرير عقيدة التوحيد الإسلامية، في أبلغ عبارة وأوجزها.
يقول الواحد الأحد سبحانه وتعالى لحبيبه وللدنيا كلها، فيها:

{ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ }
[الآيات : ١-٤]

والمعنى قل يا محمد، ويا كل مؤمن.
معلناً عقيدة الإسلام في الخالق سبحانه وتعالى:
هو الله خالق الأشياء كلها، القادر على كل شيء، العالم بكل شيء.
هو أحد واحد لا نظير ولا شبيه ولا ند له؛ لأنه الكامل في ذاته وصفاته وأفعاله.
وهذه بإيجاز شديد: صفة الوحدانية.
ثم قل:

هو الله الصمد الذي يصمد، أي يحتاج إليه كل أحد، ولا يحتاج سبحانه إلى أحد، فهو الغني عنهم، وهم الفقراء إليه.
وهذه- ثانياً- بإيجاز شديد: صفة القيام بالنفس.
ثم قل:

هو الله الذي لم يلد إذ هو لا يجانس، حتى يكون هناك توالد، الذي هو دليل الفناء.
وهذه- ثالثاً- بإيجاز شديد: صفة البقاء.
ثم قل:

هو الله الذي لم يولد إذ ليس له ـ سبحانه ـ والد؛ حيث إن الوالدية دليل الحدوث.
وهذه ـ رابعاً ـ وبإيجاز شديد ـ صفة القدم.
ثم قل:

و هو الله الذي لم يكن له كفواً أحد أي: ليس له ـ سبحانه ـ من يماثله من خلقه؛ فهو المنزه عن المثيل والشبيه والنظير عز وجل.
وهذه ـ خامساً ـ وبإيجاز شديد: صفة المخالفة للحوادث.

وبهذا:
أثبتت السورة على وجازتها لله تعالى كل كمال..
فهو سبحانه: الواحد، الأحد، الفرد، الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد
أي: الواحد، القديم، الباقي، المخالف للحوادث، القيوم.
سبحان الله وتعالى.

* * *

ولذلك: لا غرابة أن يرد.. أن هذه السورة تعدل ثلث القرآن الكريم.

حيث إن القرآن ـ كما يقول العلماء ـ يشمل ثلاثة أشياء: توحيد الله وذكر صفاته، والأوامر والنواهي، والقصص والمواعظ.

وقد تجردت هذه السورة لواحد من هذه الثلاث..

وهو: توحيد الله وذكر صفاته سبحانه.

ولا غرابة أيضاً.. أن يرد: أن الله تعالى يحب من يقرأها.

فقد روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها "أن النبي صلى الله عليه وسلم، بعث رجلاً على سرية، وكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم، فيختم بـ قل هو الله أحد

فلما رجعوا: ذكروا ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم.

فقال: سلوه، لأي شيء يصنع ذلك..؟

فسألوه.. فقال: لأنها صفة الرحمن، وأنا أحب أن أقرأ بها.

فقال النبي صلى الله عليه وسلم "أخبروه أن الله يحبه"

[البخاري..ك: التوحيد، باب: ما جاء في دعاء النبي صلى الله عليه وسلم أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى]

***

بقلم فضيلة الدكتور عبد الحي الفرماوي
رئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر